

ابراهيم الاياري

ميلاد دولة

معلم الطبع والنشر

مكتبة الأديب بمطبعة الإمامية هـ ١٣٧٧

الطبعة النموذجية

١ مكتبة المشاورى بالمسيرة الحديثة



Bibliotheca Alexandrina

0125567

ابراهيم الاييارى

ميلاد دولة

مكتبة الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالبحر المنير ١٢٧٧

المطبعة النموذجية -
١ مسكة السانورى للجامعة الجديدة

المنزعين بهم الدوائر من الهاشمين أن يطوّحوا بهم بعيدا عن
الملك ليثبوا هم إليه .
وهكذا كان مغيب تلك الدولة الأموية .

* * *

ولكنى فى هذا الكتاب « ميلاد دولة » غير محدثك عن هذا
الخلاف القديم فى كثير أو قليل ، وغير محدثك عن الخلاف
الذى كان بين ملوك بنى أمية ، ولا عن كيد بعضهم لبعض ،
ولا عن خروجهم عن أسلوب الدين وأسلوب الدنيا .

ولكن حديثى إليك فى هذا الكتاب الذى بين يديك :
عن تلك الفتنة الأولى الهينة الصغيرة التى ولى فيها الخليفة
الثانى « عمر بن الخطاب » مقتولا ، وما صحبها من أسباب ، وما كان
لها من أثر .

ثم عن تلك الفتنة الثانية التى ولى فيها الخليفة الثالث « عثمان
ابن عفان » مقتولا ، كيف تهيأت ، وعما أيقظت ، وعما خلفت .
ثم عن تلك الفتنة الثالثة التى ولى فيها الخليفة « الرابع على بن أبى
طالب » مقتولا ، وما فوتت على الهاشمين وما أعطت للأمويين .

ثم عن تلك الفتنة الرابعة التي ولّى فيها الحسين بن علي ،
مقتولا ، يتبعه في هذه السبيل جملة كبيرة من أهله : وكيف
زلزلت على الأمويين ملكهم ، وأيقظت أنصار هذا البيت
الكريم على الثأر له ولآله .

ولكن الهاشميين ما كادت . تستوى لهم السبيل إلى الملك حتى
فقدوا من يليه منهم ، فإذا هو لبني عمومتهم ، وإذا هم
المبتلون بشره ، وإذا الدولة لمن لم يذق شر المسعى .

هذا كله في عرض يقع بك على مكان العظمة ، ويلفتك إلى
موطن الخير ، ويكشف لك عن مناحي الشر .

وأنا الحريص على أن يفيد الناس من صفحة انطوت على
ما يسوء ، ليكتبوا صفحة لن يكون فيها إلا ما يسر ،

وإني بعد ذلك عند وعدى أن أسوق أخبار كل دولة في
كتيب والمعين الله وبه التوفيق ؟

ابراهيم اليازجي

مصر الجديدة
ديسمبر سنة ١٩٥٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



قُتِلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — عام أربع وعشرين من الهجرة ، بعد أن ولى أمرَ المسلمين عشر سنين وأشهرًا ، فكان قَتْلُهُ وأداء للحكم الجمهوري الشُّورى الذى ملا الدينُ به نفسه ، ولم يَسْتَوْحِشْهُ طَبْعُهُ ؛ فلقد آمن إيمان الرأى المتدبِّر الحر ، فخلا عقائهُ الإسلام يتدبِّره ، وصَفَتْ نفسه له لا يغلبها عليه هوى ، وعاش له يرجو أن يُطَبِّقَهُ كما أريد به ، نظاماً لخير المسلمين أمةً لا لخير فريق دون آخر .

ولم يدخل عمر الإسلامَ باسم قبيلته وأوزارها فى الجاهلية ، وإنما دخله باسم الناس جميعا ، من أسلم من العرب ومن غيرهم ، ومن سُلِّم من العرب ومن غيرهم ، فلم يحجب ولم يحامل ، وقسا على أهله قبل أن يقسو على من ليسوا له بأهل .

ولقد اختطف — رضى الله عنه — وأخشى ما كان يخشاه أن يرتدَّ الحكم جاهليًا قبليًا تعلو فيه كلمة السادة ، وتختفي

فيه كلمة الشعب ، وكأنه كان يحسها لاذعةً وهو على فراش الموت .
حين جمع إليه النفر الذين مات رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
وهو عنهم راضٍ ، يوصيهم ، وهو يقول :

« أنشدك الله يا علي ، إن وليت من أمور الناس شيئاً أن تجعل
بني هاشم على رقاب الناس !

أنشدك الله يا عثمان ، إن وليت من أمور الناس شيئاً أن تحمل
بني أبي مُعيط على رقاب الناس !

أنشدك الله يا سعد ، إن وليت من أمور الناس شيئاً أن تحمل
أقاربك على رقاب الناس !

قوموا فتشاوروا .»

ولم تكن عشر سنين حكمها عمر ، إلى سنتين قبلها وليهما
أبو بكر ، إلى أربع وعشرين عاماً عاشها رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - بين العرب داعياً وموجهاً ؛ لم تكن هذه السنون
الست والثلاثون كافيةً بأن تنزع من قلوب السادة السيادة
الجاهلية الغاشمة المستبدة ، وإن انتزعت غيرها من إثم الجاهلية ؛
ولا أن تنزع من قلوب الشعب المسُود الرهبة الصماء والطاعة

العَمِيَاء ، وإن كادت لتبلغ — حين هَبَّ إلى عمر عربى من العامة — وهو يَرهب عمرَ فى الحق ولا يرهبه على الباطل ، ولا تمنعه طاعته له أميرا على الأُمة أن يحاسبه فرداً عن هذه الأُمة ، فيقول له : والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بحد السيوف .

فلا يغضب لها عمر ، وإن بدت قاسية ؛ فلهلها جاء الإسلام ، ولملها عمل عمر .

وما كان قَتَلَ عمر فى فتنة من تلك الفتن التى ثارت بين المسلمين بعدُ ، وقَتَلَ المسلمون فيها بعضهم بعضاً ؛ من أجل ذلك مَرَّ قَتْلُهُ — رضى الله عنه — على خطره دون أن يُشير فتنة ؛ لأنه لم تَهَيَّ له فتنة ، ومن أجل ذلك اطمأنت نفس عُمر وهو يُودع دنيا المُسلمين للمسلمين نقية من الخلف بينهم أو الخلاف عليه ، فما هى بالهيئة على الأهم أن يمضى الحاكم مقتولا ، وما هى بالهيئة على نفس الحاكم أن يرى النفوس التى حكمها ليُرضيها قد أثارها ولايته عليهم سُخْطاً عليه ؛ لهذا أمر عُمر ابنه عبد الله قُلُقاً أن يخرج فينظر مَنْ قَتَلَهُ ؛ ولهذا استمع عمر

إلى عبدالله مطمئنا حين أنهى إليه أن قاتله هو « أبو لؤلؤة المجوسى » ،
 غلام المغيرة بن شعبة ، ولهذا نسي عمر حرَّ الجرح فى جسمه
 وقال : « الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل سجد لله سجدة واحدة » .
 ثم التفت مشغولا برعيته التى شغلته حياء يريد أن يؤدى لها
 ما عليه ، قبل أن يفصل الموت بينه وبينها ، شأن الراعى الأمين
 الذى يعلم أن حياته كلها منذ أن يلى إلى أن يموت لتلك الأمانة
 التى تولته ليس له منها شيء ؛ لذلك لم يشأ عمر أن يختص
 نفسه منها بشيء حتى هذا الرَّمق الباقى له . لم يعط منه جسمه
 حقا ، ولم يعط منه أهله حقا ، بل زحمة بما لم تتسع له الساعات
 الطوال ينظر فى أمور رعيته . وأرسل ابنه عبد الله يدعو إليه
 هؤلاء النفر الذين مات عنهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم —
 وهو عنهم راضٍ يُوصيهم .

ولكن القاتل — على مجوسيته — كان رعية يراها عمر مع من
 يرعى من المسلمين ، له مثالبهم من عدله وإنصافه ، وعلى عمر
 وأمثال عمر أن تفرع نفوسهم حين يثور هذا ، كما تثور
 نفوسهم حين يفرع المسلمون ، وإن اختلف معنى الفزعتين ،

فأولاهما فزعة تُسَمَّى إلى الحاكم في عدله العام ، وثانيتها تسمى إليه في عدله الخاص .

وما نظن عمر أهمل عدله العام بعددله الخاص ، ولا نسى إنسانيته المجردة بإنسانيته المقيدة ، ولكن وراء أبي أولوة شيئاً لا يقوى عليه عمر إلا إذا تجرد عن رسالته التي كانت امتداد الرسالة الرسول ، ثم امتداداً لحكم أبي بكر . فما نظن أبا أولوة حقد على عمر أنه لم يحطّ عنه درهمين كانا عليه لمولاه المغيرة ، وكان هو صناع اليد يحترف النجارة والحدادة في بيئته يُعوزها النجار والحدّاد . ولكننا نؤمن أن أبا أولوة كان يحقد على عمر إغاله في فارس وغير فارس من الأقطار غير المسلمة ، وكان يحقد عليه تلك الضحايا التي استكبرت وأبت على عمر أن تشيع كلمة الله ، وما يدرينا : هل من بين تلك الضحايا من كان أهلاً لأبي أولوة ؟ وإن لم يكن فلقد عدّهم جميعاً آله ، وإن بقى أبا أولوة حيث هو مجوسياً لم يتحول عن مجوسيته ليس بعيداً عن المسلمين ، ولكن قريباً منهم يُساكنهم ويعاملهم ، دليل على نفس الرجل وما تحمل من حقد ، لا لدرهمين لا يقيمان

الأود ، ولكن لعقيدة وُتْرِفيها ورأى الواتر له عمر .
ولكننى على هذه لا أريد أن أنفى هذا السبب الهين الذى
يذكره المؤرخون ، وأنا إن ذكرته أريد أن أحمّل المغيرة
ابن شعبه شيثاً من التبعة فيه .
فلقد عودنا عمر فى الكثير مما يتصل بالمغيرة أن يكون
به رحياً شيئاً ما ، رحمة لا تضار المسلمين ولا تضار حقـوق
الإسلام ، ولكن رحمة خشى إن لم يفعلها أن يضار حُرّاً هاجر
فى سبيل الله . وكان هذا المعنى كبيراً فى نفس عمر ، يعظمه ويجاهد
أن يحفظه بسياج من الإكبار .

من أجل هذا وقف عمر من المغيرة حين شهد عليه
أبو بكر وأخواه : نافع وزيد ، وشبل بن معبد . بالزنى .
ولقد اضطربت لها نفس عمر حين شهد على المغيرة ثلاثة منهم
شهادة توجب عليه الحد ، ويقدم رابعهم زيد ، على عمر ، ويراها
عمر مقبلاً ، ويتمنى عمر لو جاءت شهادة زيد غير قاطعة ،
ويتحرك لسانه بأمنيته فيقول : «إنى لأرى رجلاً أن يخزى الله
على لسانه رجلاً من المهاجرين» ، وتمضى شهادة زيد بما تمنى

عمر ، وفي يقينه أن المغيرة غير برى ، ولكنها جريرة لا تقول
فيها النفوس بما تؤمن ، ولكن تقول فيها الشهادات بما يرى
أصحابها في جلاء ووضوح .

ويقيم عمر الحد على الشهود الثلاثة ، ويفرح لها المغيرة
وينظر شامتا بالشهود وهو يقول : الحمد لله الذي أخزاكم !
وهنا يملئ يقين عمر على لسانه : اسكت أخزى الله مكاناً وارك .
وبمسكها على بن أبي طالب على مضض - وكان حاضرهما - إلا
أنه لا يملك أن يحمل زياداً على أن يصرح بأكثر مما صرح .
ويرى أن هناك حداً قد وجب هان فيه زياد ، ولم يشتد فيه عمر ،
رفقاً بمهاجر من المهاجرين ، ويخرج منها « على » بنفس كظمة ،
ويخرج منها عمر بنفس راضية مطمئنة .

ويضرب أبو بكر فلا يثنيه ما نال عن أن يعود فيشهد أن
المغيرة فعل ، ويكاد يخرج عمر عن اطمئنانه ورفقه ، ويهم بضرب
أبي بكر ، فلا يقوى « على » ، على كظمه ، ويوعد برجم المغيرة
إن ضرب عمر أبا بكر ؛ فيكف عمر .

تلك واحدة تدلّك على رفق عُمر بالمغيرة ...

وتم ثمانية تدلّك على استغلال المغيرة هذا الرفق والمُباهاة
به في حق وغير حق .

يكون عنه أنه قال : أنا أول من رشا في الإسلام : جئت
إلى « يرفأ » حاجبِ عمر وكنت أجالسه ، فقلت له : خُذ هذه
العمامة فالبسها فإنّ عندي أختها . فكان يأنس بي ويأذن لي أن
أجلس من داخل الباب ، فكنت آتي فأجلس في القائلة فيمر
المرء فيقول : إن للمغيرة عند عمر منزلة ، إنه لا يدخل عليه في
ساعة لا يدخل فيها أحد .

فعلى مثل الأولى وعلى مثل الثانية عاش المغيرة بين المسلمين
خلافةَ عمر ، يدلّ على من لاحول له إدلالاً تختلف درجته في
نفوس هؤلاء المستضعفين ، وكان أبو أوّلة أحدهم ، شكاه إلى
عمر وفي نفسه ما في نفوس أمثاله من عمر لتقريبه المغيرة
هذه القُربى الموهومة ؛ فلما لم ينل ما يريد من عمر تأكد عنده
ماوهم ، واستيقظت في نفسه تلك البواعث الأولى ، فأحيا
شراً ؛ وقتل عمر ، وكان المدبّر له المغيرة ، إن صح أن نُسب
هذا تدبيراً .

وإن في جدول أبي لؤاثة عن المغيرة - وهو ظالمه الأول -
إلى عمر - وهو المعين لظالمه - كما خال - ما يؤكد أن السبب الحق
في ثورته بعمر هو مجو سينه التي انطوت عليها نفسه واضطربت
بها ، حتى إذا ما هاجها ما كان من ظلم المغيرة وخذلان عمر ثار
يقتل عمر ، وهو يظن أنه يقتله للثانية ، وما قتله إلا الأولى .

ثم يُقتل عثمان بن عفان — رضى الله عنه — فيكون قتله
نميدا لأن يعود الأمر أدرجه استبداديا ، كما كان في جاهليته ،
وإن اختلفت الصورة .

وما أصدقها كلمة جرت على لسان ثمامة بن عدى — وكان أمير
صنعاء يوم قتل عثمان — اليوم نزعنا الخلافة من أمة محمد
وصارت ملكا وجبرية ؛ من غلب على شيء أكله .

فلقد غلب الأمويون عثمان على أمره فشتغلوه بأنفسهم
أقرباء ، وجنحوا به إلى ما خشيته عمر عليه وحذره منه ؛ وغلبه
على أمره سادتهم الطامعون في الاستئثار بالأمر بعده يريدون أن
يفوتوه على « على » وكانوا يروء له غير منافس .

وجلس معاوية يقطع الأمور دون عثمان ، يصرفها على هواه
لذلك الغاية التي ينشدها وهو يقول للناس : « هذا أمر عثمان » .
يشجعهم على ذلك ميل كان في عثمان فطريا إلى صلة ذوى رحمه ،
فلقد سمعوه يقول : « إن أبا بكر وعمر كانا يتأولان في هذا المال

ظلم أنفسهما وذوى أرحامهما ، وإنى تأولت فيه صلة رحى ،
وكانت الثورة بعثمان ؛ ثورة شارك فيها الشعب مأجورا
مسيوقا ؛ لم تكن ثورة من مُصنعه ، وإنما كانت من مُصنع السادة
الذين فزعوا بتدبير الأمويين ، سيروا لها فلولا من يخلف
الولايات تفتحم على هذا الخليفة المظلوم ذاره ، وتنال منه
أشد السَّيل .

دخل عليه « علي » في محنته هذه القاسية ؛ لا ليشد أزره ولا
ليثبت عنه ؛ ولكن ليقول له : « إني أحذرك الله وسطواته
ونقماته ، فإن عذابه شديد أليم » .

ويدرك عثمان قسوة « علي » به ساعة يرجوه أعطف الناس
عليه ، فيقول له : « أما والله لو كنت مكاني ما عنفتك ولا أسلمتك
ولا عبت عليك » .

وكان « علي » يرى أنه صاحب حق أبعد عنه ثلاث مرات ؛
الأولى يوم بايع الناس أبا بكر ، فغضب لها ولبت محتجبا مدة
ثم بايع .

والثانية يوم أوصى بها أبو بكر لعمر ، فسكت عنها

وفي النفس شيء ...

والثالثة يوم ترك «عمر» الأمر شورى ، وما كان أطمع
«علي» في أن يؤمى به «عمر» كما أوصى أبو بكر بهمر ،
ولا يتركه بين نفر غيره كلهم طامع فيها مناهض له .

وها هو ذا يراها تكون الرابعة ، والساعى إليها رجل من
وراء الصفوف ، هو معاوية ، وليست له سابقة ولا فضله ،
ويرى «عثمان» بتراخيه يمكن له .

من أجل هذا أنسى «علي» الرفق بعثمان ومؤازرته في
محنته ، ومن أجل هذا أنسى «علي» ما ذكر به عثمان : « وأحذر
أن تكون إمام هذه الأمة الذى يُقتل فيفتح عليها القتل والقتال
إلى يوم القيامة ، ويلبس أمورها عليها ، ويتركها شيعاً لا يبصرون
الحق لعلو الباطل » .

والشعب الذى حرك لتلك الثورة كان متعطشاً إلى ثورة ،
لأن الباب الذى فتحه عليه الرسول وأبو بكر وعمر — من
الحرية والعدل والمساواة — سدّه عليه عثمان غير مختار بإقحام

الأمويين أنفَسَهم عليه بوجهون الأمور في غير عدل ولا مساواة، ولم تكن له حرية في أن يقول أو ينقض ما يفعلون ، ولكن الشعب مع هذا الضيق لم يبلغ أن يدبّر لتلك الثورة ، ولم يبلغ أن يكون تدبيره على هذه الصورة المؤلمة التي انتهت بمقتل عثمان ؛ فلقد كانوا حين اجتمعوا بالمدينة لا يبلغون الآلاف . من المصريين ستمائة ، ومن الكوفيين مائتان ، ومن البصريين مائة . وكان فِطْنهم ونقض أمرهم عليهم — إن كان لهم أمر جدمبرم — شيئاً يسيراً على أهل المدينة وذوى الرأى فيها لو أرادوه . وصدق أبو جعفر القارىء حين قال : « ولعمري لو قام بعضهم فحشا في وجوههم التراب لانصرفوا خاسرين » .

ولكن المدبرين للأمر استطاعوا أن يجمعوا الثائرين من شتى الأقاليم لجهاد عثمان ، ثم تركوا لهذه الجموع الحبل على الغارب تموج في الفتنة كما تشاء ، ولو أن هؤلاء المدبرين للثورة دبّروا لغيرها ، واجتمعوا على رأى لانتها بهم إلى في يسر ، ولسلم عثمان من القتل ، وسلمت الأمة من تلك الفتنة الهوجاء ؛ ولكنهم تركوا عثمان يواجه تلك الجموع

المتألمة بمنطقة ، ولقد كاد يردّها عنه حين قال لهم : « والله ما قصرت عن بلوغ ما بلغ من كان قبلى ، ولم تكونوا تختلفون عليه ، لأنهم - كما قلت - لم يثوروا عن رأيهم وتديبرهم ، وإن كانت ثورتهم عن رأى غيرهم ، ولولا مروان بن الحكم - حين انبرى للناس بعد عثمان يقول : « إن شئتم حكمنا والله ما بيننا وبينكم السيف » - لا نتضت الفتنة فى مهدها وعاد عثمان معافاً وكان شيثاً لم يسكن .

ولكن الشعب الذى سكن لكلام عثمان هاج لكلام مروان ، سكن لكلام عثمان لأنه ، لم يجتمع له رأى فى الغضب عليه ، فأرضاه منه هذا القليل فأطمأن : ثم هاج لكلام مروان ، لأنه حرك فيه هذا القليل الذى أثاره على عثمان فمضى فى ثورته أقسى ما يكون ، ولم يجد غير عثمان يردّه إلى سكونه بكلمة مثل كلمته ترد عليه طمأنينته .

وهكذا أصبحت هذه الثورة المرافقة المزيفة ثورة حقيقة ، وأصبح هؤلاء الشذاذ الذين جاءوا المدينة لا يعرف بعضهم بعضاً ، ولم تجمع بينهم من قبل ندوة يدبرون فيها الرأى ،

وإنما استُجلبوا إليها كما يستجلب العمالة ؛ أصبحوا بعد أن
حلّوا المدينة وواجهوا عثمان وواجههم ، واستفزهم مروان
وأثارهم ، تجمع بينهم كلمة ، ولكنّها بقيت على الرغم من
هذا كله كلمة ينقصها رأى الناضج الذى يمد للشورة فى
النفوس ، واليقين الراسخ الذى يدفعهم إلى الهدف ؛ لذلك
بقوا فى المدينة أربعين يوما فى هيط وميط واضطراب وبلبلة
لا يدرون ماذا يفعلون .

وكان المدبرون للأمر من خلفهم هم الآخرون لا يعرفون
ماذا يفعلون ، ولا إلى أى هدف يهدفون ، ولكنهم كان
يعنيهم أن يدوم هذا الاضطراب ، فلم يحاولوا أن يصرفوا
الناس عنه بتدبير يجنح إلى السلم يلزمون به عثمان .

وما أسرع ما تضم الشورات إليها — إن دامت — حشالة
القوم ، ينضون إليها عن حيوانية لاتزال فى فطر الناس ،
إذا هاجت فيهم غلبتهم على عقولهم وتفكيرهم ؛ ثم عن مطامع
دنيوية ينتهزها المغلوب ليصبح غالبا ، والمحروم ليطفى ظمأ
الحرمان .

ولقد أنس الناس بحُكْمين : حُكْم أبي بكر ثم حُكْم عمر ،
ذاقوا في ظلمهما معنى التحرر من نير قریش الذى حملته عواتقهم
فى تلك الجاهلية الأولى الطويلة ، لم يملكوا أن يلقوه عنهم حتى
كان الإسلام فسوى بين الناس ولم يحمل لِسادة الأُمس سطوتهم
على عباد الله .

وأطمأن الناس إلى خلافة أبي بكر ثم خلافة عمر لأنهم
رأوا فيهما انتصافاً من ماضٍ مظلم لم يَل فيه الحُكْم إلا قرشى .
فلما آل الأمر إلى عثمان قبلوه مؤمنين به منكرين له ، آمنوا
به لأنه شىء أملتُهُ الشورى — وإن لم تكن شورى كاملة —
وآمنوا به ، لأن عثمان وإن كان قرشياً فهو شريكهم فى جهاد
طويل حمل فيه عبثاً كبيراً ، وتنكروا له لأنه قطع فى نفوسهم ذلك
الأمَل الذى بدأ ، وأطفأ فى نفوسهم هذا الرجاء الذى أشرق فيها .
أحسبها سعيد بن العاص وهو وال بالكوفة حين انتهى إليه
وقوع وجوه أهل الكوفة فى عثمان ، ولقد سيرهم إلى معاوية فى الشام
عن أمر عثمان ، وناقشهم معاوية وناقشوه ، فإذا ما تنطوى عليه
النفوسُ النعمة على قریش تردمها ولاية عثمان إليها وتديرهم فى نفوسهم .

وكما أغضبت ولاية عثمان غير القرشيين فتشكروا له شيئا ،
أغضبت الهاشميين لأنها ستمكن للأمويين وتردهم إلى سيادة غلبهم
عليها الهاشميون .

ولقد اضطرب هذا المعنى وذلك في نفوس هؤلاء وهؤلاء
دون أن يحسوه أولا ، ثم أحسوه حين طالت بالثورة أيامها
وأخذ الثائرون فيها وأعطوا ، فاجتمعوا على أمر آخر أخفوه في
نفوسهم وأعلنوا غيره على ألسنتهم ، وكان هذا الذي أعلنوه
يحرك الذي أخفوه ويزيدهم به إيمانا وعليه قوة ، فالتقى الأمران
وكان معهما أمر واحد .

ويبلغ الثوار أن أهل الأمصار المناصرين لعلّ سائرون
إليهم ، ويحس المدبرون للأمر أن شيئا سيقع يقطع على هذه
الثورة امتدادها ويردهم لم ينالوا شيئا ، ويتراعى لهم حقهم
المسلوب ، وقد اجتمعوا منه قاب قوسين أو أدنى ، يوشك أن
يحال بينهم وبينه إلى غير رجعة ؛ هنا يغلب الطيش العقل ،
وتهيب بهم النفس الثائرة : كن عبدالله القاتل ولا تكن عبدالله المقتول .

ولكن عثمان خليفة له السابقة في الإسلام والفضل على المسلمين ،
ولم يكن الذي شاع عنه من شريمحو الذي ثبت له من خير ،
فيلتفّ الثائرون ببئته يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى ، يشتطون
في حصاره ولا يحجرون على اقتحام داره .

ويقتل المدافعون عن عثمان رجلا من الثائرين به - هو : نيار
ابن عياض - ويطلب الثائرون من عثمان القاتل فيأبى أن يسلمه
إليهم ، وهو يقول : « لم أكن لأقتل رجلا ينصرني وأنتم
تريدون قتلي » . فينقلب إحجام الثائرين إقداما ، وتراخيهم عزما ،
وإذا باب الدار محرق ، وإذا الثائرون قد التفوا بعثمان .
ولكنهم على ذلك كانوا أهيب من أن ينالوا منه أو يسفكوا
له دما ، ووقفوا من حوله مهوتين مأخوذتين يريدون أن يهيموا
به ، ولكنهم لا يقوون على ما يريدون .

ولكن من وراء هذه الثورة غير الواعية ثورة أخرى
واعية ، فلقد كانت الأولى ثورة للناس يلفهم الهيج فيها بوثاق
لا يحلهم منه إلاّ بطش رادع ، فإذا لم يرزقوه ظلوا على هيجهم ،
يحمسهم له أنهم معه ما لكون ومع غيره مملوكون ، وما أعطش

النفوس المملوكة إلى أن تحس أنها مالكة ، والويل للمالكين إن هم حركوا المملوكين بالظلم أو العنف إلى أن ينسوا طاعتهم وانقيادهم لهم .

ثم كانت الثانية ثورة ذات مطمع من وراء تلك الثورة غير ذات المطمع ، وكانت هي التي حركت الناس فلبوا النداء ، وهم يخالون أنهم يُصدرون عن كراهية لعثمان ، وما علموا أنهم يُصدرون عن تلك الحرية التي يكتبها النظام وإن بدا عادلا ، فما بالك به وإن بدا جائرا . من أجل ذلك لبثت تلك الثورة متعثرة الخطى لا يملك الثائرون فيها رأيا قاطعا . ويحس الثائرون بعثمان — عن وعى وتدبير — عاقبة تردد الثائرين بعثمان عن غير وعى وتدبير ، ويخشون الزمن إن امتد ، إذ لا بد مع امتداده من إحدى اثنتين :

إما أن يفتر الثائرون ويهنوا ، فليس في ظل الحياة النائرة استقرار ، وليس للناس حياة مطمئة يغدون فيها على أنفسهم ويروحون إلا في ظل هذا الاستقرار ، وما أحوج الناس إلى هذه الحياة المطمئة ، ثم ما أحوجهم إلى هذا الاستقرار

ليضمنوا تلك الحياة المطمئنة .

وإما أن يدخل على الثورة ما يبطش بها ، وقد أحسوا
بواذره .

عند هذا برز هؤلاء المستخفون لينالوا من عثمان بأيديهم
ما طمعوا أن ينالوه على أيدي غيرهم ، ولم يكن منهم إلا كل
موتور من عثمان : منهم من يرى الخلافة له ، ومنهم من انطوت
نفسه على إحنة .

ولقد اختلف الشر في نفوس هؤلاء وهؤلاء ، وإن كان
قد ملأ نفوس هؤلاء وهؤلاء ؛ ولكنه حين غلت به نفوس
الأولين كان خلع عثمان هو كل ما يطمعون فيه ، ولكنه حين
غلت به نفوس الآخرين ، كان قتل عثمان هو ما ينشدون .

وفرق بين حقد يثيره المغنم العمام ، وآخر يثيره المغنم
الخاص ، وما سلمت الحياة من الاثنين ، وما سلم الدولة الذين
يسألون أمر الناس من ضمير الاثنين .

وما كان ثأرو البصرة — وهوام في طلحة — وما كان
ثأرو الكوفة — وهوام في الزبير — وما كان ثأرو مصر —

وهو احم في علي - ما كان هؤلاء جميعا لينالوا من عثمان ما نيل منه لو لم يكن من ورائهم هؤلاء الذين أغضبهم من عثمان بشأن من شئون الحياة ، أمثال : محمد بن أبي حذيفة ، وعمار بن ياسر ، ومحمد بن أبي بكر ، وكعب بن ذى الحبيكة ، وعمر بن ضابط البرجمي .

أما عن محمد بن أبي حذيفة ، فقد كان يتيمًا في حجر عثمان ، ثم لما شب سأل عثمان العمل فأباه عليه ، وهو يقول :

لو كنت رضى لاستعملتك . فأسرّها ابن أبي حذيفة في نفسه ، وأنساه بخيل عثمان بما لم يملك ، جوده بما كان يملك .

وأما عن عمار بن ياسر ، فلقد كان بينه وبين عباس بن عتبة ابن أبي لهب يوماً كلام ضربهما عليه عثمان ، لم يضرب عمارا دون عتبة ، ولم يضرب عتبة دون عمار ، لأنه رأى كلا منهما قد قذف صاحبه قذفاً يوجب الضرب .

وأما عن محمد بن أبي بكر ، فلقد كان إلى طامعه في الخلافة يحمل في نفسه لعثمان شيئاً ، وذلك حين لزمه حق فأخذه عثمان من ظهره .

وأما عن كعب بن ذى الحبيكة النهدي ، فكان يلعب
بالنيرنجات — وهى شئ كالسحر — فبلغ عثمان ، فكتب إلى
الوليد أن يوجعه ضرباً .

وأما عن عمير بن ضابي ، فإنه عاش يذكر لعثمان تعزيره لأبيه
وحبسه له حتى مات فى السجن ، ولم يذكر أن عثمان لم يفعلها بأبيه
كيداً ، وإنما فعلها إنصافاً لقوم من الأنصار اغتصبهم ضابي
كلباً ، ثم هجّاهم .

فهؤلاء وأمثالهم كانوا أجراً على عثمان ، وهؤلاء وأمثالهم
هم الذين هوتوا على الناس قتل عثمان .
وهكذا اجتمعت على عثمان فتن ثلاث :

فتنة تحرّكها الشعب باسم حقوقه التى له على الخليفة ، رأى أن
الخليفة لم يحسن توجيهها ، وكان هذا جديداً على الشعب ، أعنى أن
الشعب لم يكن يعرف أن له على ساداته حقاً ، وقد عاش قبل الإسلام
يعرف أن لساتته عليه كل الحق ، وليس له هو من الأمر شئ ،
فعرّفه الإسلام هذا الحق له ، هداهم إليه الرسول قولاً وفعلًا ، ثم
أيقظهم له عمر وحرصهم على تعقب من يليهم ؛ فلما نُسبوا له

أيام عثمان لم يسكتوا عنه .

وفتنة ثانية تحرك لها قوم ظلمهم اختيار عثمان للخلافة دونهم ، ولم تكن هذه الفتنة إلا امتدادا لما كان بين بنى هاشم وبين بنى عبد مناف من تنازع على الرياسة .

وقد حرك هؤلاء الشعب معهم يُخفون هذا المطمع الذى ناله عثمان دونهم ، ويُظهرون الذى ثار من أجله الشعب على عثمان .

وفتنة ثالثة دخل فيها هؤلاء الموتورون من عثمان باسم هذا الوتر وحده ، لم يعرفوا غيره ، ولقد كان هؤلاء أفسى التأثيرين على عثمان وأعنفهم به ، يمد لهم فى غيتهم رضى الذين يحملون اسم الفتنة الثانية ، واسترسال الذين يحملون اسم الفتنة الثالثة ، وأنفسهم بالثورة يرونها متنفسا، ويُحسونها خلاصا من طاعة الحاكم . وهكذا قضى عثمان يحمل وزر قتله أصحاب هذه الفتن الثلاث جميعها، ولكن ثلاثهم لم يغنموا شيئا .

فما غنم الموتورون؛ فمنهم من قضى مقتولا ، ومنهم من عاش مشردا ، ومنهم من أفلت من القتل والتشريد ليعيش على وخز ضميره

وعنف نفسه به .

وما غنم الهاشيون الذين رجوا أن تخاخص لهم الحياة وتعود
السيادة إليهم ، بل لقد عرّضوا أنفسهم لأذى كثير .

وما غنم الشعب الذي هبّ ليرد إليه بعض ما سلب منه ،
فلقد عاد ليسلب منه كل شيء ، وليذوق حروبا طاحنة
حصدت شيوخه وأبناءه حصدا ، وفتناً مظلمة كقطع الليل
تنقض عليه مضجعه ؛ ثم إلى ما هو أدهى من هذا ومن ذلك ،
فلقد رد إلى حكم فردى مُستبد ، وليس له في تدبير الأمور
قليل أو كثير .

وإن الأهواء التي فَرَّقَت بين الناس في مقتل عثمان فَرَّقَت
بينهم فيمن يختارون للخلافة بعده .

لم يَقْوِ الطامعون في الخلافة على أن يُعلنوا عن أنفسهم ولا
عن رغبتهم فيها ، بل صدّوا عنها حتى لا يسوء بهم الظن ، وحتى
لا يُفسر الناس قعودهم عن إخماد الفتنة لوناً من المشاركة فيها .

وجهد المتورون من عثمان حيث هم يتربصون بأنفسهم
الدوائر ، ولم يكن واحد منهم أهلاً لأن يزكّي لها نفسه .

وأما الشعب فلقد لُفَّتْ أسباب السخط فثار ، ولو قدر له
أن يلقن غيرها من الوعي والبصر لاجمع على من يختار .

ولهذا بقيت المدينة أياماً خمسة يلتمس الناس من يقوم
بالأمر فيهم فلا يجدونه ، وكان أخشى ما يخشونه أن يتقلب الثائرون
إلى أمصارهم دون أن يخلّفوا عليهم خليفة ، فتتفرق كلمة
المسلمين ويعودوا أوزاعاً وأشتاتاً بعد أن كانوا يداً واحدة .

ودبّ في النفوس لون من ألوان اليأس لا يكون إلا حين

يفقد الناس ثقتهم بسادتهم وأولى الراى والتدبير منهم ، وهو حين يكون يجر الأمة إلى متلفه قاصمة ، ثم يجرها إلى فوضى قائمة ، ثم يجرها إلى بلبلة لا تنفيق منها إلا على البوار والخسران .

كاد هذا اليأس القاتل يدب في نفوس الشعب ، فما من شك في أنه تحرك للثورة غير بعيد من رأى أولى الراى ، وما من شك في أنه تحرك للثورة ورأى أولى الراى في قلبه وعلى لسانه .

وإذا هذا الشعب — بعد أن حقق ما أراد على غير ما أراد — فلقد أراد إخراج عثمان من الخلافة ، ولم يرد إخراج — من الدنيا على هذه الصورة المرذولة — إذا هذا الشعب يلتمس أولى الراى ليحققوا له الأمن والطمأنينة ، بعد ما حقق هو لهم الانصاف عن رضى بالجور في التدبير .

فإذا أولو الراى عن الراى صادفون : يجدون طلحة في بستان له ، ويجدون سعداً والزبير قد خرجا من المدينة ، ويجدون بنى أمية قد هربوا إلى مكة وإلى غير مكة ، وإذا أتوا علياً باعدهم . ولقد ينس الشعب من عثمان فتار به ، وها هو ذا يئس من أولى الراى فتمتلئ نفسه ثورة عليهم ، ولقد بدأ

يُبرق ويُرعد ، وهو إذا أ برق وأرعد فقد أنذر ، وإذا أنذر
فقد أوشك أن يشور .

أحسننا منه هذا الإبراق وهذا الإرعاد . وأحسننا معهم
الإنذار ، وأحسننا مع هذا الإنذار التحفز ، حين النف بأهل المدينة
يقول لهم : « يا أهل المدينة ، أنتم أهل الشورى ، وأنتم تعقدون الإمامة ،
وحكمكم جائز على الأمة ، فانظروا رجلا تنصبونه ونحن لكم
تبّع ، وقد أجتلناكم يومكم ، فوالله لئن لم تفرغوا لتقتلن غدا
عليا وطلحة والزبير وأناسا كثيرين » .

تلك زفرة اليأس التي زفرها هذا الشعب حارة تنبيه
بحقد متأجج انطوت عليه الجوانح ، لو طال به الأمد لا انفجر
عن شر مستطير .

وهال أهل المدينة ما صدر على لسان أهل الأمصار ،
وقدروه قدره ، فزاحموا على وعلى ، يناشدونه الله أن يقبل .
ولربما كانت تروق عليا يوم أن كانت خلافة أولى بعد
أكرم راحل — أعني رسول الله صلى الله عليه وسلم — ولقد
كانت النفوس أصبى ما تكون لهذا الشرف العظيم الذي يناله

من يخلف رسول الله على عباد الله ، أما وقد نَجَّى عنها على
بأبي بكر أولاً ، ثم بعمر ثانياً ، ثم بعثمان ثالثاً ، فما هو بالمُزاحم
عليها . فلقد أطفأ في نفسه جذوة المزاحمة ذهابُ هؤلاء الأنداد
الذين كان يحاول على أن يجيء في أولهم ، أما وقد ذهب أنداد
فقد خَبَّت في نفسه تلك الجذوة ، وعاد يرى الأمر تفضيلاً منه
إن قبل ، وأداء حق في عُنقه للمسلمين إن أجاب .

وشئ آخر لم يرغب عن فطنة « على » ، فهو لم يرغب عليه أن
الذي تلده الفتنة في حجر الفتنة يعيش ، ولبانها يطعم ، وبين
ساعديها يَشْشُبُ ، لا تترك الفتنة حتى يترك ما وصله بها ، وقد
لا تتركها هي وإن حاول هو أن يتركها .

لهذا قال لهم على : « دعوني واتمسوا غيري ، فإننا مستقبلون
أمرأله وجوه وله ألوان ، لا تقوم به القلوب ، ولا تثبت
عليه العقول » .

ولكن علياً يرى لنفسه ، وهم يرون للأمة ، وهو حين
يرى لنفسه بين يدي واجب خاص ، وهم حين يرون للأمة بين
يدي واجب عام ، وليست نفس « على » من تلك النفوس التي تُشْغَل

بالواجب الخاص عن الواجب العام ، وما نظن عليا قال ما قال
ليُرد الناس عنه وليخلو هو إلى أمن الوادعين الذين يعبرون الحياة
عن عرض ، ولا يدخلونها مسئولين فيها ، وإنما الظن أن عليا قال
هذا ليُبصر الناس بما هم قادمون عليه ، وليحذّرهم الفتنة عليه ،
وليجمعهم معه على إخماد ما قد يشور .

لهذا ما كاد الناس يعقدون عليه الرجاء ويخوّفونه ماخافه
هو على المسلمين ، حتى أجابهم وهو يقول : قد أجبتكم ، واعلموا
أنى إذ أجبتكم ركبت بكم ما أعلم .
ولكن الذى أراده الناس أن يمر هينا سهلا مرّ عسيرا
صعبا .

فلقد كان هينا سهلا أن تمحو ولاية على آثار تلك الفتنة
التي أودت بعثمان ، ولقد كان هينا سهلا : أن يأخذ على يدي
المسلمين إلى الطريق السوى ويردهم إلى أمن وطمأنينة ، ولقد
كان هينا سهلا أن يلتئم شمل المسلمين بعد افتراق ، لو أنهم
اجتمعوا كلهم على خلافة د علي ، لم يخرج عليه خارج منهم .
ولكن الذى أزعج عثمان أزعج عليّا : ولقد استقبل عثمان

صدراً من خلافته مطمئناً ، واستقبلها على غير مطمئن ، فعثمان
قضى عمراً في غير فتنة ، «وعلى» يوم أن حمل الخلافة حمل معها
عبء الفتنة عليه .

يُدعى طلحة إلى بيعته فيمتنع ، فيسوقونه إلى البيعة سوقاً :
ولا يبايع الزبير إلاّ والسيف على عنقه ، ويحاج بسعد بن أبي
وقاص فيقال له : بايع . فيقول : لا ، حتى يبايع الناس . وهو
يعلم ما تفعل كلمته في نفوس الضعفاء .

ويجيشون بآبن عمر فيقولون له : بايع ، فيقول مثل ما قال
طلحة ، ويؤمُّ الأشرار الخبي أن يضرب عنقه ، فيقول على دعوه ،
ويتجه إلى ابن عمر وقداملاً عليه غيظاً فيقول له : إنك ما علمت
لسمي الخلق صغيراً وكبيراً .

ويُحجم نفر من الأنصار عن بيعته ، وكلهم من المعدودين
في قوههم نذكر منهم حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، ومسامة
ابن مخلد ، وأبا سعيد الخدري ، وزيد بن ثابت .

ونفر النعمان بن بشير بأصابع نائلة امرأة عثمان - وكانت قد
قطعت وهي تحمى بيدها عثمان من ضربة سيف - وقميص عثمان

الذى قتل فيه ، فيلحق معاوية بالشام .

ويلحق معاوية قتيص عثمان وفيه الأصابع يشير بذلك أهل الشام ، وإذا فتر أهل الشام وكادوا أن يذسوا انبرى عمرو بن العاص لمعاوية يقول له : حرك لها حوارها تحن . فيعود معاوية يعلق القميص والأصابع .

وهكذا أفسد أولو الرأي على الشعب مرة ثانية أمره ، ولم يجحوا به إلى السلم والطمأنينة .

ولن يعدم أولو الرأي أن يجدوا مع الفتنة الثانية ما وجدوه مع الفتنة الأولى ، وليس بعزير عليك أن تتلبس السقطات ، وليس بعزير عليك أن تهيم للسقطات بحجة إن كنت من أصحاب الحجج ، وليس بعزير عليك أن تتخذ من ورائك شعبا تملك عاطفته قلبه في الكثير ، وقلما يملك قلبه عاطفته .

ولكن العزيز عليك أن تغمض عينيك عن القليل من الشائعات لتحمي الكثير من الصالحات ، وأن تؤمن بخير الناس إذا غلب شرهم لسيؤمن بإيمانك آخرون ، وألا تتخذ شعبا فتحمله على شيء وأنت تعرف أن الخير في غيره .

لقد قسمت الفتنة على عثمان ؛ ما في ذلك شك ، ولقد قيل في « على » وغير « على » من الصحابة كلام قد نال منهم ؛ ما في ذلك شك .

ولكنها كانت فتنة يراد منها في جوهرها تحقيق العدل والنصفة ، لم يرد البائرون فيها قتل عثمان ، وإنما أرادوا إبعاده ، وعلى الرغم من التأثيرين لهذا المعنى من الثورة جاء قتل عثمان .

وكم تسوق الأقدار ما ليس في التقدير والحسبان ، وكم يسكون الناس عوناً للأقدار عليهم إن هم لم ينسوا ما جاء عن غير قصد ، مبهما يلبخ شره وضرره ، وإن هم لم يعلموا أن الفتنة لن يدرك أمنها إلا بإماتها ، فإنها كالنار كلما سمرت ازدادت .

هذا و« على » لم يكن خليفة لا يرضى . ولقد سهى الناس ليلهم خليفة يرضى .

ولو أريد الخير بالمسلمين ، وأريد لهم ألا يذوقوا بفتنة عثمان فتناً متصلة ، انظروا إلى ما كان نظرة مجردة عن غرض أولاً ، ثم نظرة المؤمن إلى قضاء الله لا يصله بما يزيد شراً

وضمرا ، ولنظروا إلى د عليّ ، عليّ أنه من خيرهم فأعانوه .
ولكن الأمر كان كما رآه د عليّ ، فتنة تدهخض عن فتنة ،
وكان عليماً بنفوس من حوله من سرائرهم ، وما أصدقه
حين يقول :

ولو أن قومي طاوعتني سرائرهم
أمرتهم أمراً يُدبّخ الأعداء

٤

وكما تحرك الشعب على عثمان بسبب ، تحرك الشعب على علي عليه السلام بسبب ، وقد وجد مشيرو الخلاف مع عثمان سببا ، ولم يعدموا أن يجدوا مع علي سببا . وكانت الفتنة هنا كما كانت هناك لها ظاهر وباطن :

أما ظاهرها فكان ما عليه الشعب البريء ، يصبه في روعه المهيئون للفتنة ، وما عليهم إلا أن يزخرفوا له القول ، وهو المخدوع بزخرف القول؛ إذ هو أسرع إلى وجدانه وآبى على عقله ، وما عليهم إلا أن يعدو ويسرفوا في الوعد والاماني ، وما من أمة دخلت ولا أمة مستحقة إلا وفيها هؤلاء الذين يعيشون لأمانهم ، سعدت الأمة أو شقيت .

وهكذا ثار الشعب على علي عليه السلام ، يتهمه بالتفريط في عقاب قتلة عثمان ، ويكاد يتهمه على هذا التفريط تهمة المشاركة المحرض . وإنها لكبيرة على نفس الشعب الذي يعرف عليا حق معرفته أن يعرفه على هذه الصورة المزيّفة .

وإنها لكبيرة على نفس الشعب أن يؤمن بها ولا يُهب
للضرب على يد فاعلها .

تلك كانت الثورة الظاهرة على عليّ . حُرك لها الشعب كما
حُرك للفتنة على عثمان .

* * *

ولم تكن الثورة الباطنة كانت ثورة البيت المغلوب ؛ بيت
بنى أمية ، على البيت الغالب ؛ بيت بنى هاشم .

تُعينها ثورة أخرى باطنة كانت ثورة نَفَر من الناقين على عليّ ،
وما كان عليّ « بمستطيع أن يُطهر نفوس الناس كافة من حقد خليه .

وما أحب أن أذكر لعائشة قولها لمن أنهى إليها مقتل عثمان
واجتماع الناس على بيعة عليّ : لست هذه انطبقت على هذه إن تم

أمر لصاحبك ، رُدّوني . ردوني ، وانصرفت إلى مكة وهي تقول :
قُتِلَ والله عثمان مظلوما ، والله لأطلبن بدمه .

وما أحب أن أذكر قدوم طلحة والزبير إليها ، فتقول لهما :
ما وراءكما ؟ فيقولان : إنا تحملنا هربا من المدينة من غوغاء ، وفارقنا

قوما حيارى لا يعرفون حقا ، ولا ينكرون باطلا ، ولا يمنعون أنفسهم .

ما أحب أن أذكر هذا أو ذاك ولكني أحب أن أذكر لك أنه
حين خرجت عائشة ومن معها من مكة جاء مروان بن الحـكم حتى وقف
على طلحة والزبير فقال: على أيكما أسألكم بالإمرة وأؤذن بالصلاة؟...
فيقول عبد الله بن الزبير: على أبي عبد الله - يعني أباه الزبير -
ويقول محمد بن طلحة: على أبي محمد - يعني أباه: طلحة .

أذكر لك هذا لأصلك بهذا السبب الباطن للثورة الذي
حدثك عنه ، وأن هذا السبب الباطن كان يثير السبب الظاهر الذي
تحرك له الشعب المقاتل مخدوعا .

* * *

ويلتقي « على » وجيشه بعائشة وجيشها ، فإذا بينهما وقعة الجمل .
وما أمرها على النفس أن تخوض فيها ، وما أشقها على
اللسان أن يتحرك بها ، ثم ما أعصى القلم أن يمتضى في سردها .
وحسبك أن تعرف أنها تركت من الفريقين جرحى لا يُحصون ،
وقتل يعدون بالمئات ... قُتل فيها طلحة ، وقتل فيها الزبير ،
وكادت أم المؤمنين عائشة أن يُصيدها مكروه .

* * *

ومرت هذه الفتنة الأولى الباطنة لتهيء لفتنة ثانية باطنة أشد من هذه عمقا وأبعد منها غورا ، وهى الفتنة التى مهد لها معاوية فى الشام ، كذا الطمأنوا حرك لهم حُورهم بقميص عثمان وأصاب نائلة . وعفا الله عن عمرو بن العاص ؛ فبمثلته رزقت هذه الفتنة من يؤرث لها ويذكرها ، فلقد كان يكره عليًا حقًا .

يحكون عنه أنه لما بلغه قتل عثمان سمعوه يقول : إن يل هذا الأمر طلحة فهو قى العرب ، وإن يله ابن أبى طالب فهو أكره من يليه إلى .

وما نلوم عمرًا فى كراهيته لعلى ، فالقلوب تحب وتكره ، وما نكلفها فوق طاقتها ، ولكننا نلومه حين يكره العمل الصالح لأنه يكره صاحبه ، ويرد عن الحق صاحبه لأنه له كاره .

وما إن تتحقق الولاية لعلى حتى يحقد عليه ويتربص به الدوائر ، ويأتيه نبال وقمة الجبل وما كان من نصر لعلى فيها فيضطرب عليه أمره ، وينظر يمنة ويسرة عمن هو عدو لعلى مثله ، فيسمع أن معاوية بالشام لا يبايع لعلى ، وأنه يُسمى ويصبح على الثأر منه .

فيدعو عمروُ إليه ابنيه : عبد الله ومحمدا ، يستشيرهما ،
ويقول : ما تريان ؟ ... أما علي ، فلا خير عنده ، وهو غير مُشركي
في شيء من أمره ؟

فيقول له ابنه عبد الله — وكان يرى للناس لا لآبيه — : تُروني
النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وهم عنك راضون ،
فأرى أن تكف يدك وتجلس في بيتك حتى يجتمع الناس على
إمام فتبايعه .

ويقول له ابنه محمد — وكان غير أخيه ، يرى لآبيه قبل أن
يرى للناس — : أنت نأب من أنياب العرب ، ولا أرى أن يجتمع
هذا الأمر وليس لك فيه .

ويعرف عمرو في قول أبنيه : ما هو خير له في دينه ، ثم ما هو
خير له في دنياه ، فيؤثر ما لدنياه على ما لدينه ، ويقول لآبيه :
أما أنت يا عبد الله فأمرتني بما هو خير لي في آخرتي وأسلم
في ديني ، وأما أنت يا محمد فأمرتني بما هو خير لي في دنياي
وشر لي في آخرتي .

يؤمن بهذا وذاك عمرو ، ولكن حب الدنيا يغلبه على

الآخرة، وحُب الخير لنفسه يغلبه على حب الخير للناس، وإذا هو خارج إلى معاوية فقادماً عليه، وإذا الناس من حول معاوية يحضونه على النار لعثمان، فيشتم عمرو نفسه بينهم ويرفع صوته ليُسمع معاوية: أنتم على الحق، اطلبوا بدم الخليفة المظلوم .
ومعاوية لا يلتفت إليه، ويلتفت له ابنه محمد — الذي أغرته الدنيا كما أغرت أباه — فيقول: ألا ترى معاوية لا يلتفت إليك .
انصرف إلى غيره .

ولو وجد عمرو غير معاوية ما ترك قول ابنه وما حاد عنه .
ولكن عمراً عربى يعرف الخصومة الأولى بين بنى أمية وبنى هاشم، ويعرف أن رجل هذه الخصومة اليوم هو معاوية، ويعرف أنه إن أخفق فى إثارة معاوية على عليّ فلن يفلح فى إثارة غيره، ويعرف أن معاوية غير راجع وإن بدا عنه منصرفاً .

ويدخل عمرو على معاوية فيقول: أما والله إن قاتلنا معك نطلب بدم الخليفة إن فى النفس ما فيها حيث نقاتل من تعلم سابقته وفضله وقرابته، ولكننا إنما أردنا هذه الدنيا .

أرايت معى كيف أسرَّ الثائرون بعلى من أولى الرأى
أمرأ وأعلنوا للناس غيره ، وكما بغاها معاوية لديناه بغاها من
التفُّ حوله لديناهم ، يضمهم إلى معاوية إما السكراهية لعلى ،
ولما جاء الدنيا الذى أغرام به معاوية ؟ ا .

ومن وراء هؤلاء شعب ضلَّ عنه الحق ودخل عليه الباطل .
وحسب هذا الشعب أن يجد كُلمها مر بالمنبر قيصاً مخضوباً
بدم عثمان وأصابع زوجته نائلة : إصبعين منها ، وشيثاً من
الكفِّ ، وإصبعين مقطوعتين من أصليهما ، ونصف الإبهام ،
والأجناد من حول هذا وذاك سيكون .

عندها لا تستكثر على رجال من أهل الشام أن يقسموا ألاّ
يمس الماء جسودهم ، وألاّ يناموا على فراش حتى يقتلوا قتلة
عثمان ، ومن قام دونهم قتلوه .

تلك هى حقيقة تلك الثورة ، يؤمن فيها القادة برأى ، ويؤمن
فيها الشعب برأى ، وعلىَّ تجاه هؤلاء وهؤلاء يدفع الدافعين للثورة
بحجة ، ويدفع المدفوعين للثورة بحجة .

ولكن الدافعين كانوا ذوى أطباع دنيوية تُصم وتُعمى ،
 وكان المدفوعين إلى الثورة ذوى وجدان قد ثاروا ثورة لا تردها
 إلا ثورة مثلها ، وكما هاج معاوية ناس هاج لعلى ناس ، وكانت
 حرب أصاب السادة منها بأسٌ قليل ، وأصاب الشعب منها بأس
 كبير . واستعصى التوفيق على الموفقين ، وعي الناسُ بأمرهم
 وضاقوا به ذرعا .

فاذا ثلاثة من الخوارج هم : عبدالرحمن بن ملجم المرادى ،
 والبرك بن عبد الله التميمى الصريمى ، وعمرو بن بكر التميمى السعدى
 يبيتون الرأى على قتل على ومعاوية وعمرو ، فينجو معاوية ،
 وينجو عمرو ، ويذهب على مقتولا بيد ابن ملجم .

وهكذا يقضى علىّ بين يدي فتن ثلاث :

فتنة قديمة تمتد أصولها إلى الجاهلية الأولى حملها البيتان
الأموي والهاشمي متنافسين فيما على الجاه والسلطان .

وفتنة حملها أندادٌ لعليّ منافسون له أو ناقون عليه .

وفتنة حملها فريق من الشعب ليرد ظُلمها ويُقيم عدلا .

وفرق بين موقف هذا الشعب في هذه الفتنة وبين موقفه

في الفتنة على عثمان ، فقد كانت ثورته على عثمان باسم الحق

العام الذي للشعب على الخليفة ، كانت ثورة مجردة عن غرض

ذاتي ، همها الخلاص من عثمان ، وما كان همها الدعوة لغيره ، وهي

لهذا ما كادت تبلغ هدفها حتى ارتدت تفكر فيمن يلي ليرد

الأمور أمنا وسلاما كما كانت .

ولكن ثورة الشعب على عليّ كانت أضيق غرضا ، وكانت

ذات لون طائفي ، وانقسم الناس فيها يمّنة ويسرة لا تعلّقا بالآراء ؛

ولم يكن تعلّقا بالأشخاص ، وإذا هم عثمانيون وعلويون ، أو قل

أمويون وهاشميون .

وهكذا اتسع ما بين الأمويين والهاشميين من خلاف حتى انتظم الناس معهم ، فلقد عاش الأمويون والهاشميون والخلاف بينهم لا يعدوهم إلى غيرهم ، يحقد الأموي على الهاشمي ، ويحتاط الهاشمي من الأموي ، والناس من حولهم لا يشاركون في شيء من ذلك . ثم إذا هم قد لفؤوا الشعب كله في حبائهم ، لا يرضيهم أن تعيش الفتنة قاصرة عليهم ؛ بل أرادوها عامة تعم الجميع .

وفرق بين حياتين : حياة جاهلية يعيش الناس فيها قبائل لكل قبيلة نظامها ، وحياة متحضرة تجمع ما بين الناس جميعا على نظام واحد ، كادت القبائل تذوب فيه بكل ما لها ، اللهم إلا أواصر قرى ووشائج نسب .

من أجل هذا لم يستطع الأمويون والهاشميون أن يدخلوا هذه الحرب الجديدة إلا إذا جمعوا هذا الشعب إليهم ، فكسب هؤلاء فريقا ، وكسب هؤلاء فريقا ، وباتت وحدة الشعب التي اتحد الإسلام عقدها فُرقة قاسية يهيء لها ميادينها الأمويون والهاشميون ، ويحرّض الناس عليها المغرضون والمتنفعون ،

والمبغضون والحاسدون ، ويصلى ناراها الشعب المنخبون .
وكما أثار قتلُ عثمان الأمويين يجعلون منه سببهم للانتصاف
من الهاشميين ؛ أثار الهاشميون قتلُ علي ، يجعلون منه سببهم للشار
من الأمويين .

ولكن عثمان قُتل وكان وراءه داهية استطاع أن يجمع إليه
الناس بالحيلة والدهاء ، وقُتل علي فلم يخلفه علي بنى هاشم من هو
مثل معاوية دهاء وسعة حيلة .

وعاش معاوية ومضى علي ، فخلا لمعاوية الميدان ، لهذا قامت
للأمويين دولة واختفى بنو هاشم يتجرعونها غصصا إلى حين .

وكان أنصار معاوية بالشام تجمع بينهم الطاعة ، وشيعة علي بالكوفة يفرق بينهم الرأي ، لذلك كان معاوية قويا بمن معه ، وعلى ضعيفا بمن انضم إليه ، ولقد كان الحسن بن علي قادرا أن يقف بمن معه من مجند إليه -- وقد بلغوا أربعين ألفا -- في وجه معاوية ، وقد يكتب له النصر ، ولكنه ما إن تحرك للقاء معاوية بهذا الجيش الكثيف -- وعلى مقبـدمته قيس بن سعد -- وبلغ المسدائن ونادى مناد في العسكر بأن قيس بن سعد قد قتل ، حتى تفرق العسكر شذر مذر ، لا يفترون فرار الجبابرة فحسب ؛ ولكنهم قبل أن يفتروا يزيدون إلى عسكر الفرار نكرا أشد وأدهى ، فيعرجون على سراق «الحسن» لينهبوه ويحرقوه بما فيه ، وكانهم قد عز عليهم أن يتركوا له بساطا تحته ، فنازعوه إياه .

* * *

فلا لوم على الحسن بعد هذه أن يكتب لمعاوية في الصلح ، ولا لوم على الحسن بعد هذه أن يقضى براهه ويعدل عن رأيه

أخيه الحسين ، وكان الحسين ناشده الله ألاّ يثق بقول معاوية .
وكما كان أهل الكوفة مع أبيه خلافاً وعناداً كانوا معه خلافاً
وعناداً وقلة رغبة في القتال ، فهم الذين ترددوا أولاً في بيعته
حين شرط عليهم أن يُسلموا من سالم ويحاربوا من حارب
يقولون : ما هذا لنا بصاحب ، وما يريد إلا القتال .

وهم الذين حين صالح الحسن معاوية ، وكتب إلى قيس بن سعد
بأمره بالدخول في طاعة معاوية ، وقام قيس يقول لهم : « أيها الناس
أختارون الدخول في طاعة إمام ضلالة أو القتال مع غير إمام ؟
قالوا : بل نختار الدخول في طاعة إمام ضلالة ، وبايعوا معاوية .
وما أصدق الحسن حين قيل له : ما حملك على ما فعلت ؟ ...
قال : رأيت أهل الكوفة قوماً لا يثق بهم أحد أبداً إلا مغلب ،
ليس أحد منهم يوافق آخر في رأى ولا هوى ، مختلفين لانيّة
لهم في خير ولا شر .

* * *

وهكذا خرج الحسن من الخلافة بعد أن أحسّ أنه لا جند
معه ، واستقر معاوية في الخلافة بعد أن أحسّ أنه عزيز يُجنده ،

يَأْمُرُ فَيَأْتِمُرُونَ ، وَيَدْعُو فَيُطِيعُونَ ، وَمَضَى يُثَبَّتُ الْمُلْكُ ،
يُقَرَّبُ إِلَيْهِ مَنْ يَنْصَرُ وَيُعِينُ ، وَيُنَزَّلُ كُلُّ بَكْلٍ مِنْ تَسْوِيلٍ لَهُ
نَفْسُهُ الْخُرُوجَ عَلَيْهِ أَوْ النَّيْلَ مِنْ سُلْطَانِهِ ، لَا يَعْبَأُ بِأَيِّ رَأْسٍ
يُطِيعُ بِهِ لِمَنْ يَكُونُ .

٧

وكما كان قَتْل « علي » ترجيحاً لكفة معاوية وإخلاء
 للميدان أمامه من مُنافس قوًى ، كذلك كان موت « معاوية »
 ترجيحاً لكفة « الحسين » وإخلاء للميدان أمامه من مُنافس
 قوًى ، لو أنه رزق عُدة من جُند صادقين مُخلصين مُطيعين .
 فما أعطى بنو هاشم إلا عن يديهم صاغرون ، أعطى
 « الحسن » « معاوية » في الخلافة حقّه ، لأنه وجد نفسه لا يناصره
 عليها إلاّ أهله بالرأى والدّعوات ، وقد أفلت جنده منه وكادوا
 يَسْتَقْضُونَ عليه .

وسكت الهاشميون بعد نزول « الحسن » عما نزل عنه لأنهم
 رأوا أنفسهم مغلوبين ، ورأوا بنى أمية غالبين ، ومات « معاوية »
 فأصبح الحسين — وهو ابن « علي » — ندا ، أو أبعد من ند ،
 لـ « يزيد » ، وهو ابن « معاوية » .

وما نزل « الحسين » عن حقّه ، ولكن نزل « الحسن » ، وهو
 قد ترك دُنْيا الناس للناس منذ عشرة أعوام ، فأنتفتح الباب أمام

« الحسين ، لِيُطالَبَ بِمَا شَاءَ دُونَ أَنْ يَقِفَ فِي سَبِيلِهِ أَخُوهُ
« الحسن » بِنَزُولِهِ عَنْ حَقِّهِ .

أَحْسَ ذَلِكَ بَنُو أُمِّهِ وَعَلَى رَأْسِهِمْ يَزِيدُ بْنُ مَعَاوِيَةَ ، وَأَحْسَ
ذَلِكَ بَنُو هَاشِمٍ ، وَعَلَى رَأْسِهِمْ « الْحُسَيْن » بِشِيعَتِهِ . فَأَمَّا « يَزِيدُ »
فَقَدْ أَرْسَلَ لِحَامِلِهِ عَلَى الْمَدِينَةِ « الْوَلِيدُ بْنُ عُتْبَةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ »
يَأْمُرُهُ أَنْ يَأْخُذَ « الْحُسَيْنَ » بِالْبَيْعَةِ أَخْذًا لَيْسَ فِيهِ رُخْصَةٌ حَتَّى
يَبْأَيَعَ .

وَيَدْعُو « الْوَلِيدُ » « الْحُسَيْنَ » إِلَيْهِ يَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يَبْأَيَعَ ،
وَيَقْطُنَ « الْحُسَيْنَ » إِلَى مَا يَرَادُ عَلَيْهِ مِنْ أَخْذِهِ عَلَى غَرَّةٍ ، فَيَقُولُ
لِلْوَلِيدِ : مِثْلِي لَا يُبْأَيَعُ سِرًّا وَلَا يُجْزَأُ بِهَا مِنْ سِرًّا ، فَإِذَا
خَرَجْتَ إِلَى النَّاسِ وَدَعَوْتَهُمْ لِلْبَيْعَةِ وَدَعَوْتَنَا مَعَهُمْ كَانَ الْأَمْرُ
وَاحِدًا .

يُرِيدُ « الْحُسَيْنُ » بِذَلِكَ أَنْ يَهْلُ نَفْسَهُ فَلَا يُسْرِعُ فَيُعْطَى
مَا يَنْدُمُ عَلَيْهِ بَعْدُ ، وَيُرِيدُ أَنْ يُهْمِلَ نَفْسَهُ فَلَا يُسْرِعُ فَيُرْفَضُ
مَا قَدْ يَجُورُ عَلَيْهِ سِرًّا ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَدْ خَبَرَ بَعْدُ مَا عِنْدَ أَصْحَابِهِ
وَعَزَمَهُمْ عَلَى نَصْرِهِ وَاسْتَعْدَادِهِمْ لِمُخَاضِ الْمَعْرَكَةِ مَعَهُ .

وقد فطن مروان بن الحكم — وكان حاضرها — إلى ما في
إجابة الحسين من تدبير ، وما وراءها من أهبة ، فنظر إلى
« الوليد بن عتبة » يقول : لئن فارقت الساعة ولم يبايع لا قدرت ثانية
على مثلها أبدا حتى تكثر القتلى بينكم وبينه ، احبسه فإن بايع وإلا
ضربت عنقه .

ملاك — ومروان أحد المنتفعين به — يملى عليه ، لا يبالى
في سبيله أية خطة يركب ، ولا أى ظلم يقترب ، ولا أى عدوان
يأتى ، لا تدفعه عن ذلك رحمة عباد الله ، ولا التفاتاته إلى
ما رسم الإسلام من حماية الأنفس والحقوق .

ولئن كان « مروان » تغلبه دنياه على دينه ، فلقد كان الوليد
ابن عتبة ، يغلبه دينه على دنياه ؛ ولقد كان كلاهما أمويا .

ولكن « مروان » كان أمويا قد أنسته أمويته كل شيء ؛ حتى
دينه ، وكان « الوليد » أمويا ذكر إلى جانب أمويته دينه ؛
لذا كان « مروان » يملى عن أمويته لحسب ، وكان « الوليد »
يملى عن أمويته ودينه معا ، وكان « مروان » لا يخاف أخراه
بقدر ما يخاف دنياه ، فلا عليه إن مضى من دنياه بحظه موفورا كما

يحب ، وليسكن في الآخرة ما يكون .

ولكن « الوليد ابن عتبة » يخاف أخراها أكثر مما يخاف دنياه
فلم يمتص من دنياه بأقل حظ ليلاقي آخرته بأكثر حظ ؛ لهذا
اتجه إلى « مروان » . بعد مخرج « الحسين » عنهما غاضبا - وهو
يقول له : « ويح غيرك يا مروان ، والله ما أحب أن لي ما طاعت
عليه الشمس وغربت عنه من مال الدنيا وملكتها وأنى قتلت
« الحسين » أن قال : لا أبايع ، والله إنى لأظن أن امرأ يحاسب
بدم « الحسين » ، لخفيف الميزان عند الله يوم القيامة .

ويستخزي « مروان » لكلام « الوليد » ، فما كان
يظنه - وهو أموى مثله - يبدنه بهذا القول المخرج . والمبطلون
أسرع الناس انكسارا بين يدي الأقوياء بالحق ، وأسرع الناس
تكوصا حين تلزمهم الحججة ، إذ الباطل ضعيف وإن بدا به أهله
أقوياء ، فإن وجدوا من الناس انصياعا لهم واستسلاما آمنوا
يزيدون ، وإن وجدوا الناس على غير الانصياع والاستسلام
ارتدوا أضعف ما يكونون ، وقد تؤمن منهم الألسنة والقلوب ،
وعندها لا يرتدّون ، وقد تؤمن منهم الألسنة دون القلوب ، وهم

المخادعون . وكذلك كان « مروان » ؛ آمن بما قال « الوليد »
لساننا لا قلبا ، وكان من المخادعين ، فالتفت إلى ابن عتبة ، يقول له :
إن كان هذا رأيك فقد أصبحت ا يقول له هذا وهو غير حامد
له على رأيه .



وخرج « الحسين من المدينة يتبعه بنوه وإخوته وبنو أخيه ،
لم يتخلف منهم إلا أخوه « محمد بن الحنفية » . ولقد كان « محمد »
يرى الحق لأخيه ، ويرى الخوف على أخيه ، وهو لهذا أحب له
أن يسعى ، وأحب له أن يحتاط وهو يسعى ؛ لم يصرفه عن هذا
الحق لأنه كان يؤمن به معه ؛ بل شجعه عليه ؛ ولكنه كان
أخبراً بأهواء الناس ، دلّوه عليها بموقفهم من أبيه « على » ،
ودلّوه عليها بموقفهم من أخيه « الحسن » . فجمع لأخيه بين
تشجيعه له وخوفه عليه في هذا الكلام الذي نحرص أن
نسوقه لك ، فاستمع إليه يقول لأخيه « الحسين » : يا أخى ،
« أنت أحب الناس إلى وأعزهم على ، ولست أذكر نصيحة لأحد
من الخلق أحقّ بها منك . ابعد رسلك إلى الناس وادهم إلى
نفسك ، فإن بايعوا لك كان ما تحب ، وإن أجمع الناس على غيرك
لم ينقص الله بذلك دينك ولا عقلك . إني أخاف أن تأتى نفراً
أو جماعة من الناس فيختلفوا عليك ، منهم طائفة معك وأخرى

عليك، فيقتتلون، فتكون لأول الأسنّة ، فإذا خير هذه
 الأمة كلها — نفساً وأباً وأماً — أضيعها دماً وأذلّها أهلاً .
 رأيت إلى « محمد » كيف دفع إلى الحق ومنع منه ، يدفع
 إليه دفع المؤمن به ، ويمنع منه منع المشفق الخائف على أخيه .
 ولكن « الحسين » كان قد اعتزم أمراً لا يريد الرجوع عنه ،
 يغلب إيمانه به خوفه من عواقبه .

وما نعيب على « الحسين » خروجه على « يزيد » بمعنى حقاً
 يراد له ، وما نعيب على « يزيد » تمسكه بحق سيق إليه ؛ ولكننا
 نعيب على هذا الشعب الذي اختلفت كلمته فلم يعرف كيف يجمعها ،
 ويقف سائراً يفسّر قواه بين « الحسين » و « يزيد » ، ولقد
 ذاق جزاء حيرته تلك شراً كبيراً ، ما كان أغناه عنه لو اجتمعت
 له كلمته ؛ وأذاق « الحسين » شراً كبيراً ، ما كان أنجاه منه
 لو كانت له كلمته ، وما نظن « يزيد » إلا ذاق هو الآخر
 همّاً متصلاً ونصباً .

ولكن هذا الشعب لم يعرف هذه الكلمة الموحدة التي له
 فيحرص عليها ، فلقد تعلمها في اختيار « أبي بكر » ، ثم كان

قريباً منها في اختيار « عمر » ، ثم تمثلها مطبقة في أضيق حدودها في اختيار « عثمان » ، ثم همّ أن يردّها إليه كاملة في ثورته على « عثمان » ، ثم أملاها مرتجلة في اختيار « علي » ، ثم ردتها عنها الفتنة بين « علي » و « معاوية » ردّاً عنيفاً ، فإذا هو لا يعرف كلمته التي له ، وتفرق لا يدري أين يجتمع حول « الحسين » لنسبه وفضله وقدره ، أم يجتمع حول « يزيد » لماله وجاهه وإغرائه وقهره .

ولو قدر لهذا الشعب أن يوجد الوجود القوي الموحد الذي أراده له الإسلام ، لأملّى في تلك الخصومات بالرأى الحاسم ، ولقطع دابر تلك الفتن ، ولأراح نفسه من عناء كثير .



وخرج « الحسين » من المدينة يقصد قصد مكة ، فيلقاه عبد الله بن مطيع ، فيقول له : جعلت فداك ، أين تريد ؟ فيقول الحسين : « أما الآن فمكة ، وأما بعدُ فإني أستخير الله » .

وكأنى بالحسين لم يكن قد دبّر الأمر قبل خروجه عن
المدينة ، وإنما هو قد أجاب « الوليد بن عتبة » بما أجاب ،
وسمع من « مروان بن الحكم » ما سمع ، فأوجس في نفسه شراً ،
وقد انطوت نفسه على أمل ، فترك حيث يخاف إلى حيث يأمن ،
وخرج ينشد أنصاره على حقّه ، بعيداً عن ملاحقة « الوليد
ابن عتبة » له ، وقد فعل ، وبعيداً عن ائتمار « مروان » به ،
وقد يفعل .

* * *

ولقد كان في مكة خارج آخر على بيعة «يزيد» له خطره ،
ولقد حاربها هو الآخر هاربا من المدينة ، هو : «ابن الزبير» .
وفي مكة لقي «الحسين» «ابن الزبير» واستمع إليه يشير عليه
بالرأى . ولكننا لم نعلم أنهما اجتماعا على جهد موحد وهما بين
يدى غرض واحد .

كما قد خلف «الحسين» و «ابن الزبير» خارجا ثالثا على
بيعة «يزيد» أيضا ، وله هو الآخر خطره ، هو «ابن عمر» .
ولكننا لم نعلم أن «الحسين» و «ابن الزبير» اجتماعا معه على
جهد موحد ، وهم ثلاثتهم بين يدى غرض واحد .

غير أننا نعلم أن كل واحد منهم كان يبغيها لنفسه ، أسر ذلك
أو جهر به ، ولهذا لم نعلم لهم هذا الجهد الموحد .
ولو أن الشعب عرف كلمته التي له - كما قلنا - لوفر على هؤلاء
السادة هذه البلبلة العسكرية ، ولردهم إلى كلمة سواء ، ولكنني نفسي
مؤونة الخوض مع بعضهم معارك دامية حمل هو فيها العبء الأكبر .

وشيعه « الحسين » الذين عليهم معتمده ، هم في السكوفة ،
 ليسوا من بين أهل مكة ، وليسوا من بين أهل المدينة . وحين
 بلغهم موت « معاوية » ، ثم امتناع « الحسين » ، ومعه
 « ابن الزبير » و « ابن عمر » عن البيعة لـ « يزيد » تذهبوا لما
 يجب عليهم نحو من شايعوه وتشيعوا له ، ولقد استكانوا
 حكم « معاوية » كله ، بعد أن سلم « الحسن » الأمر لمعاوية ،
 فسلموا هم الآخرون الأمر لمعاوية ، على اختلاف في التسليم ،
 فلقى سلم « الحسن » عن يأس وقنوط ، وسلخواهم عن
 ونيّ وفترة .

وعندى أن الشيعة الذين اجتمعوا حول « الحسن » في يومهم
 الأول ، ثم ختلوه في يومهم الثاني ، والذين وصفهم « الحسن »
 حين خطبهم ينعى عليهم هذا فقال لهم : « كنتم » في سيركم إلى
 صفين ، ودينكم أمام دنياكم ، وأصبحتم اليوم ودنياكم
 أمام دينكم .

نعم ، عندى أن أنصار « الحسن » بالأمس كانوا غير أنصار
« الحسين » اليوم ، والبيئة التى أنبتت أولئك هى البيئة التى أنبتت
هؤلاء ، والرأى الذى حرك السابقين هو الرأى الذى انتظم
اللاحقين ، ولكن شيئاً واحداً هو الذى خالف بين هؤلاء
وهؤلاء ، فأنصار « الحسن » كانوا قد خرجوا من حرب
مضنية مُهلكة خاضوها مع « على » وهو يحارب « معاوية » ،
وكانوا قد شوّش عليهم أفكارهم ، وبلبل فيهم خواطِرهم حُكم
الحاكمين : « عمرو بن العاص » ، وأبى موسى الأشعرى ، وكانوا
قد أفسد عليهم عقولهم ما خرج به الخوارج من آراء .

فلما أن سلم « الحسن » خلصوا إلى أنفسهم يلومونها على
ما فرطت فى جنبه ، ووادعتهم الحياة نحواً من عشرين عاماً لم
يضمّمهم ميدان الحرب ، ولكن ضمّتهم ميادين الكلام ،
يضمّنوا فيها عن أفكارهم ما كان يشوشها ، وعن خواطِرهم ما كان
يبلبها ، وعن عقولهم ما كان يزلزها ، فإذا هم قد عادت لهم
قوة البدن ، وقوة الرأى والعقل : وإذا هم على أول الطريق
برقبون الداعى .

وكانني بالحسين قد بان له هذا فخرج يطلب حقه ، وكانني به لم يشجع على هذا الخروج إلا حين رأى تلك المعاني وآمن بها وبغيرها ، فما كان بعيداً عما فعله هؤلاء الشيعة بأيـه ، وما كان بعيداً عما فعلوه بأخيه ، وما كان هو غير بصير لا ينظر للأمر من وجوهه ، وما كان طامعاً قد غمى الطمعُ على بصيرته فسلبه الحذر وأسلبه إلى الغرور .

و « الحسين » بعد هذا كله كان مؤمناً بحق بيته الإيمانه كله ، وكان على إيمانه به حريصاً عليه لا يرى التفريط فيه ، رُغِبَ أو هُدِّدَ ، وهو لهذا قد وقف لأخيه « الحسن » — حين ألانه قبول « معاوية » شروطه ، يجادله ألا يفعل وهو يقول له : أنشدك الله ألا تصدق أحذوثة معاوية وتكذب أحذوثة أبيك .

فيرد عليه « الحسن » هذا الرد الذي لا جواب معه : « اسكت أنا أعلم بالامر منك » .

ورد أحسن فيه « الحسن » ، أنه الأكبر فأجاب ناهياً ، ورد أحسن فيه « الحسن » ، أنه خبر الأمور فقال قاطعاً .

وسكت « الحسين » ، لأن الحق كان لأخيه وليس له أن

يُزحزحه عنه ، ولأن أخاه لم يرد أن يسمع فيما عزم عليه نصحا .

وسكت « الحسين ، حياة أخيه لأنه لم يكن يملك غير السكوت ، وسكت « الحسين ، عشر سنين أخرى بعد وفاة أخيه لأن « معاوية ، كان أقوى من أن ينازع وكان أنصاره هو لم تستقم لهم أمورهم .

وهكذا خرج « الحسين » من مكة يطلب حقه حين تهيأت له هذه الأسباب كلها ، ولم يشأ أن تفلت منه .

وكانت الأسباب التي تهيأت للحسين هي الأسباب التي تهيأت لانصاره ؛ فلقد مات « الحسن » رضى الله عنه ، وما كان لهم أن يتحركوا في حياته ، ولقد مات « معاوية » — رحمه الله — وكان من كان سطوة عليهم وجبروتا ، ولقد تحرك « الحسين » وما كان أرقبهم لهذا الخروج وأشدّ تلهّفهم إليه . ولقد ولى « يزيد » والناس عليه مختلفون ، فما أحيانها فرصة للإرجاف به لينصروا « الحسين » ويخذلوه .

* * *

لهذا اجتمعت الشيعة في منزل كبير لهم هو « سليمان بن صرد الخزاعي » ، وكتبوا إلى « الحسين » هذا الكتاب الخالد لهم وعليهم ، والذي لا يدع مجالا للحسين أن يتلبث أو أن يترث ، يقولون فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، سلام عليك ، فإننا نحمد إليك الله
الذى لا إله إلا هو .

أما بعد . فالحمد لله الذى قَصَمَ عدوك الجبار العنيد ، الذى
افترى على هذه الأمة فابتزها أمرها ، وغَصَبها فَيَسَمُها .
وتأَمَّر عليها بغير رضى منها ، ثم قَتَلَ خيارها ، واستبقى
شرارها

وإنه ليس علينا إمام فأقبل لعَلَّ الله أن يجمعنا بك على
الحق ، والنَّسْعَانِ بنِ بَشِيرٍ فى قصر الإمارة؛ لَسْنَا نَجْتَمِعُ معه
فى جُمُعَةٍ ولا عِيدٍ ، ولو بلغنا إقبالك إلينا أخرجناه حتى
نُؤَدِّقَهُ بالشَّامِ إن شاء الله تعالى . والسلام عليك ورحمة الله
وبركاته .

كفَّرَ بمعاوية ويَمُنْ ولد ، وإيمان بالحُسَيْنِ معه إيمان
بقوتهم على أنهم قادرون ، لا يَمْنَعُهُمْ أن يظهروا على عدوهم
إلا أن يَجِدُوا من يَجْتَمِعُوا عليه ، ولقد صَوَّرُوا له واليَهُم
شخصاً لا نَفْعَ فيه ولا ضَرِيرَ منه ؛ إن شاءوا أَبَقُوا عليه ، وإن

شَاؤُوا نَفْسُوهُ عَنْهُمْ .

ولقد شفَعُوا هذا الكتاب بكتاب آخر ، ففعلَ الواثق
تفَرُّجَ له الساعات عن سائحات تَسْعِجِلُ به وتَدْفَعُه إلى مزيد
من الإقدام ، ثم عن حَذَرٍ مَعِجِلٍ به هو الآخر ، وَيَدْفَعُه
إلى مزيد من الإسراع .

من أجل هذا وذاك لم تُمَهِّلُ الشيعة « الحسين » حتى يصل
كتابهم إليه ، ولم يُمَهِّلُوا أنفسهم حتى يصل جواب « الحسين »
إليهم ، وسيَتَرَوُا بعد ليلتين رسولا لهم ثانيا بكتاب لهم ثان إلى
« الحسين » ، يذكر المؤرخون أن صفحاته بلغت الحُسَيْنِ
بعد المائة .

وفي يقيني أن هذه الصفحات التي جاوزت المائة بخمسين لم
تسكن كلامًا كلها ، فما في ليلتين يستطيعون أن يجبروا هذا
الكتاب ، ولا بعد ليلتين من كتابهم الأول يكونون قد أدركهم
هذا الفيض من الرأي لِمَتَلَى به هذه الصفحات .

وإنما الذي أكاد أجزم به أن كتابهم الأول إلى « الحسين »
أَمْضَاهُ نفر منهم قليلون ، وكان أن حَذَرُوا أن يظن « الحسين »

أن ناصريه قليلة ، وأن الداعين له عدد معدود ، وما أخرى « الحسين » أن يصدق ، وما أحرامهم أن يشكوا في أنفسهم ؛ لهذا حَبَرُوا لهذا الكتاب الثاني يذكرون فيه ، مع كلمة كانت لا شك قصيرة . وكانت لا شك في معنى الكلمة الأولى ، يذكرون فيه أسماءهم اسماً اسماً ، وبهذا وحده مائرا تلك الصفحات التي بلغت مائة وخمسين صفحة ، أسماء الجلة القوم ومشهورهم .

هذا الحذر هو الذي يجلب بهم فبادروا إلى إرسال كتابهم الثاني إلى « الحسين » بعد يومين من كتابهم الأول ، ليمثلوه يقينا ، وليضمنوا خروجه إليهم .

وهكذا بدأ الشيعة يسبقون « الحسين » إلى الثورة ، بعد أن سبقهم هو إليها . وهم حين فعلوا ما عليهم ووثقوه أصبحوا حريصين عاياه متلفين إليه ، من أجل ذلك لم يجتزئوا بما كان أولا وما كان ثانيا ؛ بل أرسلوا رسولا ثالثا إلى « الحسين » بحثونه على المسير إليهم .

أمورا تترك « الحسين » — وهو المؤمن بحقه ، الجريء

به ، الشار له — يتلبث أو يتريث ؛ فلقد أظهروا تأييدهم له
أولا ، ثم قضوا بالذى فعلوا ثانيا على حذره ، فلم يبق له إلا أن
يسرع إليهم ، وقد أرسلوا يستعجلونه ،

ولكن « الحسين » على هذا كله كان يحب أن يطمئن شيئا ، فكذب
إليهم : أما بعد . فقد فهمت كل الذى اقتصصتم . وقد بعثت إليكم
بأخى وابن عمى وثقتى من أهل يثرب : « مسلم بن عقيل » ؛ وأمرته
أن يكتب إلي بحالكم وأمركم ورأيكم . فإن كتب إلى أنه
قد اجتمع رأي ملائكتكم وذوى الحجى منكم على مثل ما قدمت به
رؤسلكم ؛ أئدم إليكم وشيكا إن شاء الله

فلعمري ما الإمام إلا العاقل بالكتاب والقائم بالقسط
والدائن بدين الحق . والسلام .

ويُخِيلُ إِلَى أَنَّ «الحسين» كَانَ عَجَلًا هُوَ الْآخِرُ ، عَلَى الرَّغْمِ
مَا بَدَأَ مِنْ تَرْيِثِهِ ، وَإِرْسَالِهِ «مُسْلِمًا» عَلَى الطَّرِيقِ قَبْلَهُ ، يَنْطَلِعُ لَهُ قَبْلَ
أَنْ يَمْضِيَ هُوَ .

وَيَكَادُ خَطَابُهُ هَذَا يَكْشِفُ عَنْ عَجَلَتِهِ تِلْكَ ، فَلَقَدْ كَانَ فِيهِ
«الحسين» مُوجِزًا كُلَّ الْإِيجَازِ . يَعْجَلُ نَفْسَهُ عَنْ أَنْ يُطِيلَ
فِيضْبِيعِ وَقْتًا ، وَيَعْجَلُ نَفْسَهُ عَنْ أَنْ يَمْلَأَ رَسُولُهُ لِيَلِيهِمْ «مُسْلِمًا»
ابْنَ عَقِيلٍ ، نَتْرَةً أُخْرَى فَتَفُوتَ الْفُرْصَةُ ، وَكَأَنِّي بِهِ قَدْ أَحْسَسْتُ
أَنَّ الْعَبْيُونَ أَخَذَتْ تَرْفُوبُهُ ، وَالْآذَانُ أَرْهَفَتْ لِنَسْمَعِهِ ، وَقَدْ
فُوتَ هُوَ وَقْتًا فَلَا يَحِبُّ أَنْ يَفُوتَ وَقْتًا آخَرَ .

مِنْ أَجْلِ هَذَا كُلِّهِ كَتَبَ «الحسين» كِتَابَهُ الَّذِي كَانَ يَحِبُّ أَنْ
يَصْدُرَ عَنْهُ ، فِيهِ الْإِسْهَابُ ، وَفِيهِ الْإِطْلَاقُ ، إِنْ لَمْ تَكُنْ مُبَادِلَةً لِلْقَوْمِ
عَلَى مَا فَعَلُوا مِنْ مِثَالٍ ، فَمَا كَانَ أَوْلَاهُ أَنْ يَصْدُرَ عَنْهُ يَضْمُرُ رَأْيَهُ ، وَيَكْشِفُ
عَنْ حَقِّهِ ، وَيَنْضَمِنُ مُسَابِقَةً ، وَيَذْكُرُ فَضْلًا .

لَقَدْ خَلَا الْكِتَابُ مِنْ شَيْءٍ مِنْ هَذَا كُلِّهِ ، وَكَانَ يَجِبُ أَنْ

يضم هذا كله ، واجتزأ فيه « الحسين » بتلك الكلمة القصيرة التي
صنعتها صفة الإمام العادل ، وكأنه ، إنما كان يسمى نفسه ،
وَيَدْعَى بِهَا عَلَى غَيْرِهِ .

ولعل « الحسين » إلى جانب تلك الحشية التي عجلت به عن أن
يطيل ، كان على ثقة من نوايا هؤلاء الأنصار ، فكف عما يجب أن
يقال مثله لمن ليس لهم علم هؤلاء بأمرهم وبيعتهم به .

ومضى « مسلم بن عقيل » برسالة « الحسين » يسعى نحو الكوفة
بعد أن أوصاه « الحسين » بما يريد منه .

فلقد أوصاه بتقوى الله ، وكان ذلك أول ما أوصاه به لا عن
شك في « مسلم » ، ولكن خوفاً عليه من دنيا قد ازدحمت بالذنن ،
منها المغرى الممعن في الإغراء الذي لا يقوى على كبح نفسه دونه
إلا من عصم الله بهتواه ، ومنها المرهب الموغل في إرهابه الذي لا يصمد
له ولا يقوى عليه ؛ إلا مَنْ خشى الله وحده ولم يخش سواه ،
و « مسلم بن عقيل » رسول « الحسين » الأول ، وقد يكون
الآخر — فليست الفتنة مُمِيلة « الحسين » ليغثير من يخار

فهو إن مال أوزكص اقلبت الفتنه عليه ولم تَسْتَوِ له .
ولقد أوصاه بكيمان أمره ، وأن يلطّف بالناس ولا يهتف بهم ، فإن رأهم مجتدين له بحجّـل إليه ليخبره .

ولقد اخبره الحسين ، لرسالته ثقة من أهل بيته ، ولكنه لم يخبر منهم بجلدأ يؤمن بها إيمانه ، ولا يهوله فيها ما يركب ، فأكاد « مسلم » يودع أهله ويودّعون ، وينفصل عن المدينة حتى يهضـل الطريق ، وينفذ ما معه من ماء فيموت دليلاً عطشاً ، ثم تستقيم له الطريق إلى الماء ، فيبلغه بعد جهد وليس فيه إلاّ زمام ، ويرى نفسه حين بـغ الماء قد نزل مكاناً يدعى المضيق ، فيتطير ويهلع ، ويكتب إلى « الحسين » بعد أن يصف له ما كان :
« إن رأيت أعفيتني وبعثت غيري » .

وما فزع اسم المكان « مسلم بن عقيل » ، ولا فزع هذا التطير ، ولكن كان — كما قلنا — غير مؤمن برسالته إيمان أخيه بها ، فما إن وقع على سبب مما يجزع الناس له جزعاً خفيفاً ، حتى جزع هو له جزعاً شديداً ، ونظر إلى حياته وإلى ذلك المطلب الذي

خرج له ، فرأى حياته أعزّ عليه من ذلك المطلب ، وهو إن رجع فقد ضمن الحياة ، وإن مضى فما هو بضامن تُجرح ذلك المطلب .

ولعل شيئاً آخر كان يشغل نفس « مسلم بن عقيل » ، قد يكون واضح له . فهو يستعمل منه وهو يشعر ، وقد يكون خاطراً يُصدر هو عنه وهو لا يشعر ، وقد يكون هذا الشيء الذى انطوت عليه نفس « مسلم » بين الخفاء والظهور ، هو أن « مسلماً » ساع لغيره لا لنفسه ، سيصيب الخير بيته . إن قدر لهذا الخير أن ينجى ، ولكن أين ترتيبه من هذا ، وما هو موضعه من هذا الخير .

إن صح هذا أوّلاً ما كان من « مسلم بن عقيل » من اثناء وإيثار للرجوع . فلم يكن التطير وحده عاة هذا ، وإنما كان قبل التطير هذا الخاطر الذى تحرك فى نفسه عن قصد أو عن غير قصد ، وما نحب أن نظن بمسلم الجُبْن وإن كان قد ظنه به أخوه « الحسين » حين قال له وهو يرد عليه : أما بعد . فقد خشيت ألا يكون حملك على الكتابة إلى إلا الحين ، فامض لوجهك .

* * *

ولقد دلنا « مسلم بن عقيل » بالذى فعل كيف ستمضى

المعركة ، وهو حامل لوائها ، فما تشك في أنه مضى إليها مأمورا
غير مرید ، متهورا غير مختار . هنا لن تنفعه تقوى الله التي
أوصاه بها أخوه وهو يرسله ، فلقد ملكه الحرف ، يذكيه في
نفسه أنه قد تطاير ، ويذكيه في نفسه أن الغنم غيره ، وهو فيه
مأجور له حظ قليل .

ولن يكون رفيقا بالناس كما أوصاه أخوه ، فقد برم بما
يحمل وضجر ، والرفق بالناس لا يصدر إلا عن قلب قد امتلأ
رضى وطمأنينة ، كما لن يكون كتما كما أوصاه أخوه ،
فهو في حيرة من أمره ، والكتمان شيء لا يقوى عليه إلا من
ملك زمام نفسه ، ولم تلب عليه الحيرة خاطره .
وما بسكاد « مسلم » تطأ قدماه الكوفة حتى يمضي يؤذي
رسالته على الوجه الذي فرضه عليه هذا التطير ، وهذا الخاطر ،
وهذا البرم ، وهذا الضجر ، وهذه الحيرة ، ويلتف به الناس
علانية ، ويقرأ عليهم كتاب « الحسين » جهرة ، فإذا هو قد علم
مكانه ، وإذا والى الكوفة « النعمان بن بشير » قد نذر به .

ويفزع « النعمان بن بشير » إلى المنبر يخطب الناس وقد اجتمعوا إليه ، وكان حليماً ناسكاً يحب العافية ، وهو على ذلك كان لا يحب أن يُغلب على أمره ، فأخذ يحذّر الناس الفتنة أولاً ، يملئ عليه في ذلك قلبه ؛ ثم أخذ ينذر الناس بطشه ثانياً ، يملئ عليه في ذلك حرصه على ألا يُغلب .

ولكنّ رجلاً من أحلاف بنى أمية هو « عبد الله بن مسلم ابن سعيد الحضرمي » — وكان حاضر ذلك — لا يقنع بما كان من « النعمان بن بشير » فيقول له : إنه لا يصلح ما زى إلا الغشيم ، وإن هذا الذي أنت عليه رأى المستضعفين .

وكذلك كان بنو أمية — وكان أحلاف بنى أمية — يخافون صغار الأمور ، كما يخشون كبارها ، ولا يرحمون خصمهم على الصغيرة كما لا يرحمونه على الكبيرة ، ويرون أن استئصال الداء حين يبدو ، خير من الرقق به علاجاً حتى لا يستعصى .

لهذا ستمّر « عبد الله بن مسلم » يكتب إلى « يزيد » يخبره بمقدم « مسلم بن عقيل » الكوفة ومبايعة الناس له . ويقول له في حزم : إن كان لك في الكوفة حاجة فابعث إليها رجلاً قوياً

ينفذ أمرك ، ويعمل مثل عملك في عدوك ؛ فإن « النعمان » رجل ضعيف ، أو هو يتضعف .

وكما كتب الشيعة إلى « الحسين » كتاباً بعد كتاب ، كتب أنصار « يزيد » إليه كتاباً بعد كتاب ، وكان أول السكاكين إليه « عبد الله بن مسلم » هذا ، ثم تلاه غيره ، فكتب إليه « عمار بن الوليد بن عقبة » . وكتب إليه « عمر بن سعد بن أبي وقاص » ، كما كتب إليه غيرهما ، كلهم يُحذرو وينذرو .

وكما كان « الحسين » عجلاً ليناجز خصمه ، كان « يزيد » عجلاً ليقضى على خصمه ، وأولهما يسعى إلى ملك يريد أن يجمع أسبابه بين يديه ؛ وثانيهما يريد أن يحتفظ بملك قد اجتمعت أسبابه لديه ؛ وأولهما يسعى لأمل لم يذقه ، وثانيهما يدافع عن أمل ذاقه ؛ لذلك كان ثانيهما أعنف على خصمه ، وأشدَّ قسوة للدفاع عن حقه . وسرعان ما استبدل « يزيد » بـ « النعمان بن بشير » الناسك الحليم رجلاً لم يدخل النسك قلبه ، ولم يعمر الحلم وجدانه هو : « عبيد الله بن زياد » ، ولم يكن بعيداً عن قرابته ، فقد

استلحق د أبو سفيان ، أباه د زيادا ، ودسه على بنى أمية .

* * *

ولم يُحمل د يزيد ، د عبيد الله ، يوما أو بعض يوم ، وإنما أمره أن يخرج إلى الكوفة من غده ، لا يترك د مسلم بن عقيل ، إلا مقتولا أو منفيًا .

وكانى بأهل الكوفة الذين استيقظوا على موت د معاوية ، وولاية د يزيد ، وخروج الحسين ، ونفر معه عليه ؛ كادوا أن يعودوا إلى سُبُبانهم حين علموا بمقدم د عبيد الله بن زياد ، إليهم . فلقد حسبوا اللقمة سائغة ، وأن خصمهم قد هان فهبوا ، ولقد رأوا الحسين ، يُقدم إليهم رجلاً وبوخر أخرى ، ففتروا شيئاً ، ولقد لقوا رسول الحسين ، إليهم د مسلم بن عقيل ، وليس فيه الغيرة على ما يحمل ؛ فتراخوا ، ولقد ساء لهم ألا يَقْدُم إليهم الحسين ، فيخوض بهم المعركة في حينها لا يرضن بنفسه ، فلما عز عنهم شيئاً بدأ نفر منهم يرضن بنفسه ، ولما رأوا أمرهم قد افتضح ، وأن خصمهم قد تذبذبه لهم تحاذلوا ، وحين علموا أن د عبيد الله بن زياد ، هو واليهم الجديد تلبسوا يتدبرون حيانهم .

لهذا كان خروج « الحسين » إليهم بعد هذا ليس من التسدير
في شيء ؛ فلقد كتب « الحسين » إلى أشرف البصرة كتابا
يحفزهم إليه ليقيموا الدين للناس بعد أن زعزع أركانه بنو أمية .
كتب بذلك إلى « مالك بن مسمع البكري » ، وإلى « الأحنف
ابن قيس » ، وإلى « المنذر بن الجارود » ، وإلى « مسعود بن عمرو » ،
وإلى « قيس بن الهيثم » ، وإلى « عمر بن عبيد الله بن معمر » ،
وإلى غيرهم .

فكلهم تلقى كتابه يكسّمه في قلبه ، لا تتحرك له يد ، ولا
ينطق به لسان ، خَوَرًا وَضَعْفًا .

ويبلغ الخور والضعف بواحد منهم ، وهو : « المنذر بن
الجارود » ، غاية ، فإذا هو يسعى بالكتساب وحامله إلى
« ابن زياد » ، وهو يظن أن « ابن زياد » قد دسّه عليه ليخبر
ما عنده ، فيمزق « ابن زياد » الكتاب ويضرب عنق حامله .

ولربما كان خلف « المنذر بن الجارود » غيره من إخوان
له باغ بهم الخوف مبلّغه ، إلا أنهم استمسكوا شيتنا ولم يفعلوا .
ثم يقف « ابن زياد » بين أهل البصرة يخطبهم ، وهو يريد أن

يسمع أهل الكوفة، وهو يقول : يا أهل البصرة ، إن أمير المؤمنين قد
ولاني الكوفة ، وأنا غاد إليهم بالعداة ، وقد استخلفت عليكم
أخي « عثمان بن زياد » ، فإياكم والخلاف والإرجاف ، فوالله
لئن بلغني عن رجل منكم خلاف لأقتلنه وعريته ووليته ،
ولأخذن الأدنى بالأقصى حتى تستقيموا ، ولا يكون فيكم
مخالف ولا مشاق ، وأنا « ابن زياد » أشبهته من بين من
وطئ الحصى ، فلم ينتزعي شبه خال ولا ابن عم .

ولقد دوت كلمة « ابن زياد » في آذان أهل البصرة فوعتها
ووجلت لها قلوبهم ، وهون عليهم الأمر شيئاً أنه غداً
عنهم راحل ، وليس « عثمان » كعبيد الله ، كما دوى صداها
في آذان أهل الكوفة فوعتها ووجلت لها قلوبهم ، وصعب
عليهم الأمر شيئاً أنه قادم إليهم فلاقهم ومقيم بينهم .

وما تسكاد قدماء عبيد الله بن زياد ، تطأ أرض الكوفة
حتى تطأ المنبر فإذا هو واقف عليه يقول : أما بعد . فإن
أمير المؤمنين ولاني مصركم وثغركم وفيثكم ، وأمرني بإنصاف

مظلومكم وإعطاء محرومكم ، وبالإحسان إلى سامعكم ومُطيعكم ،
وبالشدة على مُريبكم وعاصيكم . وأنا مُستع فيكم أمره ومنقذ
فيكم عسده ، فأنا لمُحسنكم كالوالد البرّ ، ولمُطيعكم كالآخ
الشقيق ، وبسيفي وسوطي على من ترك أمرى وخالف عهدى ،
قلبيُّبق أمرؤ على نفسه .

ما زادنا على ذلك ، ثم نزل .

• • •

عرف « عبيد الله بن زياد » أن القلوب منها ما يُباع ويُشترى ،
فتفتح لها هذا الباب على مصراعيه ، يدخل منه الطامع في جاه
بنى أمية ونشبههم .

وعرف « عبيد الله بن زياد » أن من القلوب ما يخاف ويخشى ،
فلوّح لها بعصفه وبطشه غير مكذوب في هذا التلويح ، فقد سبق
إليهم ما فعله في البصرة مع هذا الرجل الذى ساقه إليه « المذمر
ابن الجارود » .

وعرف « عبيد الله بن زياد » أن هناك نفرا بين هؤلاء
وهؤلاء لا يضئهم إليه طمع ، ولا يُخيفهم منه بأس ، فبعث إليهم

رجاله يأخذونهم أخذاً شديداً ، وألزم العُرفاء أن يُحصوا له
الناس على ما تُضمّر نفوسهم وتُخفى ، وهو يقول لهم : مَنْ
كتب إلى قنّدي برى ، ومن لم يكتب لنا أحداً فلا يضمن لنا ما في
عرفته ألاّ يُخالقنا منهم مُخالف ، وألا يبغي علينا منهم باغ .
فمن لم يفعل فبرئت منه الذمة وحلالٌ لئلامه وماله . وأما
عَريف وجد في عرفته من بُغية أمير المؤمنين أحدٌ لم يرفعه
إلينا صُلب على باب داره

ويسمع « مسلم بن عقيل » بمقالة « ابن زياد » فيهنّز لها قلبه ،
ويُحس أن صاحب الدار الذي يؤويه لا شك خائف فضائق به ،
فيخرج عنه إلى دار « هانيء بن عروة المرادي » يطرق عليه بابه ،
ويُدرّك « هانيء » مَنْ القادم عليه ، فيخرج لا ايرحّب به ،
ويهش له ، ولكّته يلقاه عابسا وهو يقول له : لقد كَلَفْتَنِي
شططا ، ولولا دخولك داري لأحببت أن تنصرف عني . غير
أنه يأخذني من ذلك ذمام ، أدخل .

ولقد مرّ بك ما كان من « المنذر » بالبصرة ، وهانت ترى

ما كان من « هاني » ، بالكوفة ؛ حادثان إن دلت أولاهما على حذر ليس معه تنكّر للهدد ، فقد دلت ثابتهما على خوف يكاد يحمل التنكّر للهدد .

وإلى هذه الحال أو قريب منها يكاد يذهب أمر الشيعة ، فلقد انصرفوا عن الجهر بما كانوا يقولون إلى الإسرار به ، وعن الإعلان بما يريدون إلى التخنّس فيه .

و « عبيد الله بن زياد » جاد في إثر « مسلم بن عقيل » يتعقبه ، وأصبح هذا الذي نزل الكوفة منذ قليل ليعرف خبر القوم ، ويكتب للحسين ليَسْأَلَهُ ، قد حبس نفسه في دار « هاني » ، لا يخرج منها ولا يعلم من أمر القوم الذين سيكتب عنهم إلا القليل الذي يصل إليه عَفْوَاً ، وما لا يُغْنِي « الحسين » شيئاً ، كما أصبح « مسلم » ، فيخبّئه لا يُغْنِي عن أمر الشيعة شيئاً . وعاد الشيعة كما كانوا أولاً ، لا هم إلى حرب فيستعدون ، ولا إلى سلم فيهدون ، ولكن كانوا بين هذه وتلك يتخطفهم . « ابن زياد » ، واحداً بعد الآخر .

ويحس « عبيد الله بن زياد » من يخبئ « هاني » ؛ دلّته عليه

رجل كان له عينا عليه ، فيطلب « ابن زياد » ، هانئا ، إليه ليلقاه ، فيعتذر أولا ، ثم يلي ثانيا « فيقول له « ابن زياد » : « جئت بمسلم فأدخلته دارك وجمعت له السلاح وظننت أن ذلك يخفى .

ويقول له « هاني » : اسمع مني وصدقني ، فوالله لا أكذبك . والله ما دعوتك ولا علمت بشيء من أمره حتى رأيته جالسا على بابي يسألني الثزول على ، فاستحييت من رده ، ولزمني من ذلك ذمام ، فأدخلته داري وضيفته ، وقد كان من أمره الذي بلغك . فإن شئت أعطيت الآن موثقا تظمن به ، ورهينة تسكون في يدك ، حتى أنطلق وأخرجه من داري وأعود إليك .

فيقول له « ابن زياد » : لا والله ، لا تفارقني أبدا حتى تأتيني به .

ويثور في نفس « هاني » ، خلاق عربي ، لا ينزل عنه عربي أبدا . يستوى في ذلك أكان المدافع عنه عدوا أو صديقا ، هذا الخلاق هو ماشاع عن العرب وأثر عنهم ، وضربت به الأمثال ، ألا وهو إكرام الضيف وحمايته والدفاع عنه ، من أجل هذا الخلاق

وحده ؛ لامن أجل الرأى الذى رَبط ما بين « هانىء » و « مسلم
ابن عقيل » ، والذى من أجله ثار الشيعة وكتبوا للحسين ، والذى
من أجله أرسل « الحسين » « مسلم بن عقيل » ؛ من أجل هذا
الخلق وحده قال « هانىء » لابن زياد : لا آتيك بضيفي
تقتله أبدا .

وهانت ترى مرة ثانية كيف ذاب كحاس الشيعة أمام
تهديد « ابن زياد » وشدته ، ولم يكن « هانىء » إلا واحدا منهم ؛
بل كان كبيرا من كبرائهم ، يخطو فى إثر خطوه مئات ، ويعنف
بعنفه مئات ، ويلين بلينه مئات .

وكنا نحبا كلمة أخرى تجرى على لسان « هانىء » قبل كلمته هذه ؛
أو مع كلمته هذه كنتا نحبه أن يكون شجاعا لرأيه وما يدين به كما كان
شجاعا لعاداته تلك التى نَشَأ عليها ، ولكنه نَسى هذا الرأى حين أحسَّ
المُتَلَفَة فى ظله ، وذكر هذا الخلق لأنه خاف أن يترك الحياة
بسبب التداخل عليه وعلى أبنائه ، فلا يزالون يُدَمِّرون بها إلى
آخر الدهر .

ولعلنا نقيد من حديث « هاني » جديدا قد لا يكون توكيدا ،
ولكنه ظن يثيره ظن : هو أن الرأي الذي لف الشيعة بحبله لم
يكن قد باغ بعد أن ينزل من قلوبهم منزلة العقيدة الدينية التي
دخلت عليهم قلوبهم ، ففلاها ملنا لا متسع فيها لغيرها ، فرموا
بأنفسهم إلى الموت لا يخشونه في سبيلها . واستعذبوه على مرارته
وهشوا للقائه ، يذكرون حقا يغبطهم معه أهم سوف يلقون
ربهم عليه .

ولعلنا نقيد من حديث « هاني » جديدا آخر ، قد يكون
توكيدا وليس ظنا يثيره ظن ، هو أن هذا النزاع الذي جمع
الشيعة على الحسين ، كان مردّه إلى ذلك الكثرة الذي حمله غير
القرشيين للقرشيين ، وقد غنموا قهر الأمويين للهاشميين على
حقهم ، ليجمعوا منها فرصتهم للوثوب بالأمويين ؛ من أجل ذلك
التقوا بالحسين ، كما التقوا بالحسن ، وكما التقوا بعلي ، وهم في كل
مرة التقوا فيها لم يكونوا يصدرون عن وعي يشبه وعي العقيدة ؛
لهذا سرعان ما كانوا ينفضون إن أحسوا اليأس أو أذروا
بالشدة .

هكذا بدأ الرأي الشيعي ؛ بدأ رأيا سياسيا ، ثم كان رأيا دينيا فيما بعد .

ولقد ثار الجدل بين « ابن زياد » و « هاني » ؛ لا يذكر « هاني » ، إلا هذا الذي ذكره من قبل ، وهو حق الضيف عليه ؛ ولا يذكر « ابن زياد » ، إلا أن يُسلم « هاني » ، « مسلم ابن عيقل » ، إليه .

ويدخل بينهما رجل من القوم كان حاضرا هما ؛ ليهون الأمر على « هاني » ، ويحقق لابن زياد ما يرغب ، فيخلو به « هاني » ، يقول له : يا هاني : أنشدك الله أن تقتل نفسك ، وتدخل البلاء على قومك ؛ إن هذا الرجل ابن عم القوم — يعني بني أمية — وليسوا بقاتليه ولا ضائريه ، فادفعه إليه فليس عليك مخزاة ولا منقصة ، إنما تدفعه إلى السلطان .

فيقول له هاني : بلى والله ، إن عليّ في ذلك خزيًا وعارا ، لا أدفع ضيفي وأبا صَحِيح شديد كثير الأعوان ، والله لو كنت واحداً ليس لي ناصر ، لم أدفعه حتى أموت دونه .

وهكذا يسجل « هاني » ، على نفسه مرة ثانية نِسْبِيَانَهُ

رأيه الذى شارك فيه وهيج له ، مع إقرار منه بأنه كثير العون والناصر ، ولكنه لا يثيرهم ولا يثورون معه لهذا رأى ، وإنما يثيرهم ويثورون معه لغيره مما هو دون هذا رأى .

* * *

ولكن للقصة بقية تكشف لك عن نفوس هؤلاء الشيعة من أهل الكوفة ، كما كشف لك أولها عن نفس « هانىء » :
فلقد وكل « ابن زياد » بهانىء مَن ضربه على وجهه حتى كسر أنفه ، ونثر لحم خديّه وجبينه على لحيته ، وملا حجره دما .
فتقبل « مذحج » ، شيعة « هانىء » ، وعليها « عمرو بن الحجاج » ، فتحيط بقصر « ابن زياد » ، يظنون أن « هاتنا » قد قُتِل ، فيُطْل عليهم « شريح القاضى » يُخبرهم أن صاحبهم لم يُقتل ، فينقلبوا راجعين وهم يقولون :
الحمد لله إذ لم يـُـقتل ...

فهم لم يثوروا لما فعل « ابن زياد » بـ« هانىء » ، يُسيئه على إخوانه « مسلم بن عقيل » ، وإنما ناروا حين ظنوا أن « ابن زياد » قتل « هاتنا » .

يُقرّون لابن زياد أن ينكل بـ«هاني»؛ لَيْسَتْ خَاصٌّ مِنْهُ «مسلم»
ابن عقيل ، ، ولا يُقرّونه على أنه يقتل على هذه سيدهم ، وكأنهم
أحسّوا أن سيدهم لا بد مستأين مع تنكيل «ابن زياد»
فتركوه يألم لَيْسَتْ جيب ، وأن «ابن زياد» لن يقتل سيدهم هذه
فتركوه بين يديه يشتد به حتى يحيب .

ثم إن للقصة بقية أخرى لا يفوتك أن تعرفها :

يروون أن الخُبر بلغ «مسلم بن عقيل» فخرج من مكانه
يدعو أصحابه إليه ، فإذا هم ثمانية عشر ألفا ، كلهم قد بايعه ،
من «كندة» ، ومن «مذحج» ، ومن «أسد» ، ومن «تميم» ، ومن
«هوازن» . ويخرج بهم نحو قصر «ابن زياد» .

ويروون أن «ابن زياد» لما بلغه إقبال «مسلم» إليه فيمن
اجتمع حوله تحرّز في قصره وأغلق الباب عليه ، ليس معه
في القصر إلا ثلاثون رجلا من الشرطة ، وعشرون رجلا من
من الأشراف ، هذا غير أهل بيته ومواليه .

ويروون أن «ابن زياد» كان فيمن معه رجال من أشراف
«كندة» و«مذحج» و«تميم» ، فأمرهم أن يخرج كل واحد منهم إلى سَنِّ

مع « مسلم بن عقيل » من قبيلته يخوِّفهم ويخذلهم
كما أمر مَنْ عنده من الأشراف أن يطأوا على
الناس من القصر فيُمنّوا أهل الطاعة ، ويخوِّفوا أهل
المعصية .

فإذا الناس كلهم ، الذين اجتمعوا حول « مسلم بن
عقيل » قد تفرقوا عنه ، وإذا « ابن عقيل » ليس معه غير
ثلاثين رجلا .

وكما اجتمع الشيعة حول « مسلم بن عقيل » تضامهم
إليه كلمة ، افرقوا عنه تفرقهم كلمة ، ولا ندرى الآن
« مسلم بن عقيل » لم يكن الرجل الذي دبّروا الثورة من أجله ؟
أم لأنهم لما رأوا صاحبهم ابتعد عنهم ولم يحضروا
هم عن « مسلم » ولم ينصروه .

أم لأن الشيعة - كما وصفناهم - لم يكونوا يصدرون عن
رأى ، للأسباب التي قدّمنا من قبل ؟

* * *

ومضى « مسلم بن عقيل » يضرب في أزقة الكوفة ، لا يدري

أين يذهب ، وإذا هو آخر الأمر أمام باب امرأة من « كندة » ،
وكان لها ابنٌ خرج مع الناس ، وجلست هي ترقب عودته . فسلم عليها
« ابن عقيل » ، وطلب منها ماء فسقته وجلس يستريح . وإذا
المرأة تقول له : يا عبدالله ، ألم تشرب ؟ فيقول لها « مسلم » : بلى .
فتقول له المرأة : قم فاذهب إلى أهلك .

ويُطرق « مسلم » والمرأة تقول لها ثلاثا وهو لا يبرح ، حتى
إذا برمت به اتجهت إليه تقول له في عُسف : سبحان الله ... إلى
لا أحل لك الجلوس على بابي .

عندها يخرج « مسلم » عن صمته ويقول للمرأة والأسى
يملأ عليه جوانحه : أنا « مسلم بن عقيل » كذبتى هؤلاء القوم
وغرتونى .

وترثى له المرأة وترق له ، وتدخله دارها وتعرض عليه
العشاء فلا يذوق منه شيئا ، ويحجى عنها ، فيعلم من أمه خبر
« مسلم » بعد إلحاح منه عليها ، وتستكتمه أمره ، وتأخذ عليه
الآيمان بذلك ؛ فيسكت .

ويُصبح « ابن زياد » فيرسل في إثر « مسلم » من يبحث عنه ،
ويشتد في ذلك ، ولا يقوى هذا الابن الذي آوت أمه « مسلم »
ابن عقيل ، على أن يكتّم ، ويخاف نكال « ابن زياد » به إن هو
رآه عند أمه وفي بيته ، فيسعى هو إلى « ابن زياد » يُخبره خبره ،
وإذا « مسلم » بين يدي « ابن زياد » .

ولكن « مسلماً » لم يُسلم نفسه إلاّ بعد قتال بينه وبين من
اقتحموا عليه الدار ليأخذوه ، وإلا بعد أن قال له « محمد
ابن الأشعث » : لك الأمان فلا تقتل نفسك ، وإلاّ بعد أن أثنى
بالجراح وعجز عن القتال .

وأنى القوم بيغلة فحملوه عليها بعد أن انتزعوا منه سيفه ، فإذا
عيناه تدمعان ، وإذا هو يقول : هذا أول الغدر .

ويتهجه إليه رجل من القوم وهو يقول له : « مَنْ يطلب مثل
الذي تطلب ؛ إذا نزل به مثل الذي نزل بك لم يبك ... »

فيقول له « مسلم » : « ما أبكى لنفسى ، ولكن أبكى للمستقلين
إليكم ، أبكى للحُسَيْن وآل الحُسَيْن ... »

وقبل أن ننتقل بك إلى أخبار « الحسين » نحب أن نفرغ من حديث « مسلم » .

فقد قدم « محمد بن الأشعث » بـ « مسلم » على « ابن زياد » وأخبره خبره ، وذكر له أمانه له .

وهنا تصبح الكلمة لـ « ابن زياد » بعد أن ملك ، يريده هذا الملك عُنفا إلى عُنفه ، أو قتل يرده الملك إلى عُنفه المعروف ، فيقول لابن الأشعث : ما أنت والأمان ، ما أرسلناك لتؤمنه ، إنما أرسلناك لتأتينا به .

فيسكت « ابن الأشعث » على استحياء لا يقول شيئا .
وتمضى القصة تكشف لك عن قسوة الإنسان بأخيه ، لا ترده عنها رحمة ولا تثنيه قرابة .

فيحكون أن « مسلم بن عقيل » اشتد به العطش ، وقد طال انتظاره على باب قصر « ابن زياد » ، ورأى جرة فيها ماء بارد . فقال : اسقوني من هذا الماء ... خال بينه وبينه رجل من القوم لاضير عليك من أن تعرف اسمه ، فلقد كان « مسلم بن عمرو الباهلي » ، واقدراى أن يُضيف إلى عناء « مسلم بن عقيل » عناء

آخر، فقال له وهو يتهم به : أتراها ؟ .. ما أبردها ؟ .. والله لا تذوق منها قطرة حتى تذوق الجحيم في نار جهنم .
ويدخل « مسلم » على « ابن زياد » ، فيقال له : ألا تسلم على الأمير ؟ .

فيقول « مسلم » : إن كان يريد قتلي فما سلامي عليه ، وإن كان لا يريد قتلي فكأنني تسليمتي عليه .
فيقول له « ابن زياد » : لعمرى لتقتلن .

ولم ير « ابن زياد » أنه قد شفى نفسه بهذه الكلمة ، ولا بلغ بها من نفس « مسلم » ما أراد ، فيقول : قتلتني الله إن لم أقتلك قتلة لم يقتلها أحد في الإسلام .

وتشير هذه الكلمة « مسلم بن عقيل » فيثور به « ابن زياد » ، فقد عرف ما ينتظره على يديه ، فما عليه أن يشفى نفسه كما شفى « ابن زياد » نفسه ، فالتفت إليه وهو يقول له :

أما لك أحق من أحدث في الإسلام ما ليس فيه ، أما لك لا تدع سوء القتلة ، وقبح المثلة ، وخبث السيرة ، ولوم الغلبة ، ولا أحد من الناس أحق بها منك .

هناك يملك « ابن زياد » إلا أن يشتمه، ويشتم « الحسين »،
ويشتم « عليا »، ويشتم « عقيلًا » .
ثم سرعان ما أمر بمسلم فأصعد فوق القصر لتضرب رقبة،
وليشتبه مواريثه جسده و « مسلم » لا يكف عن التسييح والاستغفار .

* * *

ويطعم « ابن زياد » في أخرى بعد أن مرت الأولى بسلام -
أعنى قتل « مسلم » - ليجمع القلوب على رهبته . ويزيدها من
خشيتها ، فيأمر بـ « بهانيه » فيخرج به إلى السوق فيضرب عنقه ،
يتولى ذلك منهم مولى تركي لابن زياد .

ثم يجمع « ابن زياد » رأس « مسلم » إلى رأس « هاني »،
ويبعث بهما إلى « يزيد » ليشتع في غير الكوفة ماشاع في الكوفة ،
وليخشاه مع أهل الكوفة من هم في غير الكوفة .

وما درى بالذي فعل أنه غرس في قلوب أهل الكوفة
وقلوب غير أهل الكوفة - إلى جانب هذه الخشية - موجدة مضت
الأيام نزعزع جذور الأولى ، وتوصل للجذور الثانية ، حتى
كانت الفتنة الصاخبة بالأمويين التي سنحدثك حديثها بعد حين .

ولكن أين كانت « مذبح » ، وأين كان « عمرو بن الحجاج »
الذى ثار منذ وقت قريب حين بلغه مقتل « هاني » ؟
وأين هؤلاء الثمانية عشر ألفا الذين تحركوا مع « مسلم »
منذ قليل ؟

لقد ردّوا جميعا على أعقابهم لا تضطرب أيديهم بالسيوف ،
ولكن تضطرب قلوبهم بالنقمة والسخط .

لقد كان « بن زيد » ، قليلا بجنده ، ولكنه كان كثيرا بالأشراف
الذين طمعوا في جاه بني أمية ونسبهم ، ففتوا في عضد الناس .
ولقد كان « ابن زياد » ، عنيفا لا يرعى إلا « ولا ذمة » ، ففت
عنقه في عضد فريق آخر من الناس ، وهم الذين لم يكن
الذي جمعهم قد بالغ مبلغ العقيدة في قلوبهم ، فاستكانوا في يسر
يسير .

وخلا الجو لابن زياد يمضى في الطريق إلى نهايته ، يشجعه
« يزيد » ، على أن يفعل ، وهما يظنان أنها يثبتان ملكا ، وما حسبنا
أنهما يفرسان حقدًا لا يثبت معه ملك ، وإن بدا قويا ، وما قدرا
أن السيف الذي يحمى المالك إلى انقلام ، وأن القلوب التي

تحوط الملك إلى غير دوام .

وايكن أني للأمويين أن يستبدلوا بسياسة العنف سياسة السلم والرفق ؟ ذلك مالم يكن لهم إليه سبيل ؛ فالأمر اغتصاب وسبيل ذلك إلى الأقوى ، ولم يكن الأمر شوري مرده إلى الشعب يحكم لمن يرضى .

وهكذا كانت سياسة الأمويين سياسة عنيفة عنفا لا يحيد لهم عنه ، وكانت مقاومة الهاشميين هي الوسيلة التي لا بد لهم منها . وكان لا مفر للشعب من أن يكون بين هؤلاء وهؤلاء يشقى بالقتل ، ويشقى بالفرقة ، لا تستقيم له حال إلا في القليل .

* * *

والآن نعود بك إلى حديث « الحسين »؛ فقد كتب إليه « مسلم بن عقيل » قبل أن يلقى حتفه ، وحين اجتمع إليه هؤلاء النفر الثمانية عشر ألفاً ، وحين وقع « هانيء » في يد « ابن زياد » ، يخبره بأن الفرصة مواتية ، وما عليه إلا أن يَسْجُدَ قَسْداً الكوفة .

ولقد أخطأ « مسلم » كما أخطأ « الحسين » من قبله : أخطأ « مسلم » لأنه نظر إلى الناس في عديد هم ، ولم ينظر إليهم في قلوبهم .

ولقد أخطأ « الحسين » حين لم يعجل إلى أهل الكوفة قبل أن ينزل بهم « ابن زياد » ، إذ كان الناس على « النعمان بن بشير » أجراً ، وكانوا مع « ابن زياد » أضعف ، وإذا كان « النعمان » رفيقاً يطمع الناس فيه ، ولم يكن كـ « ابن زياد » يخاف الناس منه ، وإذا كان « النعمان » أعجز من أن يضم الأشراف حوله بالرغبة والرهبة ، على حين ضم « ابن زياد » الأشراف إليه

رغبة ورهبة .

وكذلك أخطأ « الحسين » حين قدر الخطوة أولاً ثم لم يقدر
الخطوة ثانياً ، ولكنه كان بعيداً عن موطن الفتنة ، وكان « مسلم »
رسوله إليها ، فله المُنذر إن استجاب .

ولقد أدرك « مسلم » وهو يساق إلى الموت ما جنت رسالته
على « الحسين » ، فخلاً بابن الأشعث — وهو الذى
أمّنه كما تقدم لك — يقول له : إني أراك ستعجز عن
أمانى ، فهل تستطيع أن تبعث من عندك رجلاً يخبر
« الحسين » بحالى ويقول له عني : ليرجع بأهل بيته ولا يَغْرَهُ
أهل الكوفة ، فإنهم أصحاب أبيه الذين كان يتمنى فراقهم
بالموت أو القتل ؟

وأدرك ذلك مرة ثانية ، وهو بين يدي « ابن زياد » وقد
حلف ليقتلنه ، فطلب منه أن يدعه يُوصى إلى بعض قومه ،
فخلاً « مسلم » بـ « عمر بن سعد » يقول له : إن بينى وبينك قرابة ،
ولى إليك حاجة ، وهى سرّ .

وهنا يحجم « عمر بن سعد » عن أن يسمع من « مسلم » :

فهمو في موقفه هذا أعجز من أن يحتمل أمانة السر ،
و « ابن زياد » حاضر و سامع ، فإما أن يكتمه عن « ابن زياد » ،
فيعرض نفسه للتلف ، وإما أن ينفي به « ابن زياد » فيكون
قد خان أمانته ، وما هي بالهينة على رجل ذى مروءة
كـ « عمر بن سعد » .

ولكن « ابن زياد » كان في هذه المرة رفيقاً ، أو قل داهية
ما كرا ، فهمو لم يُرد أن يمضى « مسلم » بهذا السر الذى قد
يُنفيد هو منه ، فما عليه أن يرخى له ليقول ، وما عليه بعد ذلك
إلا أن يشتد بـ « عمر بن سعد » حتى يقول : لهذا قال « ابن زياد » ،
لـ « عمر بن سعد » : لا تمتنع من حاجة ابن عمك ...

عندها لم يَقْوِ « عمر بن سعد » أن يرفض ، وإلا
كان مقصراً في شأن ابن عمه ، بخالفا عن أمر « ابن زياد » ،
فاختلى ، بمسلم يسمع منه ، وإذا « مسلم » يقول له : إن
على الكوفة ديناً استدنته منذ قدمت الكوفة ؛ سبعمائة درهم ،
فاقتضها عني .

ووجده « عمر بن سعد » سرّاً هيئنا ليس عليه بأسٌ إن

اكتمه ، فاطمآن .

وكان يظن « مسلم بن عقيل » قد انتهى عند هذه ، فإذا هو يقول له : وانظر جثتي فاستوهبها فوارها .

ويعرف « عمر بن سعد » — وكان رجلاً ذا بصر — أن حقد « ابن زياد » أبداً من أن يعرف مثله مداه ، وأنه أضعف من أن يدخل بين « ابن زياد » وبين ما يريد ، فيتملبل . « عمر » ولا يدعه « مسلم بن عقيل » يقول شيئاً ؛ بل يمضى يقول : وابعث إلى « الحسين » من يرده .

هنا يفيق « عمر بن سعد » على ما خشيه أولاً ، ويجد أمانته في كفة وحياته في كفة أخرى ، ولكنه رأى أنه إن هو قام بأمانته لم يُغن شيئاً عن « الحسين » ولا عن نفسه . وإن هو خاها وصارح « ابن زياد » بما قال « مسلم » فقد يحفظ على « الحسين » حياته وعلى نفسه حياتها .

وقد كان ما قدر « عمر بن سعد » وإن لم يكن كحل ما قدر كان ، فما إن صارح « ابن زياد » بما قال « مسلم » حتى قال « ابن زياد » لمسلم : لا يخونك الأمين ، ولكن قد

يؤمن الخائن . أما مالك فهو لك تصنع به ما شئت . وأما الحسين
فإن لم يُردنا لم نرده ، وإن أرادنا لم نُكف عنه ، وأما جثتك
فإننا إذا قتلناك لا نبالي ما يُصنع بها .

* * *

إذن لم يكتب « عمر بن سعد » إلى « الحسين » ، كما طلب منه « مسلم » ، ولكن كتب إليه « ابن الأشعث » كما أراد منه « مسلم » ويلقى رسول « ابن الأشعث » « الحسين » فيخبره فلا يشنيه هذا ، وهو يظن أن إجابة « مسلم » فيما كتب إليه أولا أولى به .

وكأنى بالحسين لم يكن عليه غير أن يجيب ، وإلا فقيم كان امتناعه على « يزيد » بالبيعة ؟ وفيم كان إرساله « مسلم بن عقيل » قبله يتحسس له ؟ وفيم كانت هذه الشائعات التي ملأت عليه الآفاق ؟ ... وفيم كان تعريضه أنصاره يلقون ما لقوا وهو عنهم بعيد ؟ ...

إلا أنه لو استجاب للثانية لاشتهم في عزمه ، ولاشتم في شجاعته ، ولقضى على ما يملك في القلوب ، ولفرض الأساس من حوله إلى آخر الدهر . فما عليه إذا مضى ، ولكنه ملوم إن قعد . أو ليس الذى خرج له حقا ليس له وحده ؟ ولكنه للبيت الذى ينتمى إليه ، وإن هو ارتد واستكان ، كما ارتد أخوه

« الحسن » فست في عضد آله ، وفست في عضد الناس من ستول آله
ولكنه إن مضى على وجهه فلا يبعد أن يظفر بحقه ، أو يموت
فيترك آله على هذا الحق ، والناس من حولهم لا يرجعون .
على هذا صمم « الحسين » ، وبهذا أجاب رسول « ابن الأشعث »
إليه يقول له : كل ما قدر نازل ، وعند الله نخوتنا أنفسنا .

ولكنه قد كان إلى جنب « الحسين » بمسكة قوم مشيرون
ناصحون ، يعز عليهم أن يمضى « الحسين » إلى وجهه لا يؤمن
عليه فيه التلف .

فيأنيه « عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام » ، فيقول
له : « إني أتيتك لحاجة أريد ذكرها نصيحة لك ، فإن كنت ترى
أنك مستنصحى قلتها . وأديت ما على من الحق فيها ، وإن ظننت
أنك غير مستنصحى كففت عما أريد ،

فيقول له « الحسين » : « قل ، فوالله ما أستغشك ، وما أظنك
بشيء من الهوى » .

فيقول له « عمر بن عبد الرحمن » : « قد بلغني أنك تريد

العراق ، وإني مُشفق عليك ، إنك تأتي بلدا فيه عُماله وأمرؤه ،
ومعهم بيوت الأموال ؛ وإنما الناس عبيد الدينار والدرهم ، فلا
آمن عليك أن يقاتلك من وعدك نصره ، ومن أنت أحب إليه
من يقاتلك معه . »

فيقول له « الحسين » : « جزاك الله خيرا يا بن عم ، فقد علمت
أنك مشيت بنصح ، وتكلمت بعقل ، وقد آخذ برأيك أو أركه
فأنت عندي أحمد مُشير وأنصح ناصح . »

* * *

ويأتيه « عبد الله بن عباس » فيقول له : « قد أرجف الناس
أنك سائر إلى العراق ، فبين لي ما أنت صانع ؟ ... »
فيقول له « الحسين » : « قد أجمعت السير في أحد يومى هذين
إن شاء الله تعالى . »

فيقول له « ابن عباس » : « فإني أعيذك بالله من ذلك ، خبّرني -
رحمك الله - : أتسير إلى قوم قتلوا أميرهم ، وضبطوا بلادهم ،
ونفخوا عدوهم ؟ فإن كانوا فعلوا ذلك فسير إليهم ، وإن كانوا
إنما دعوك إليهم وأميرهم عليهم قاهر لهم ، وعُملهم تبيح

بلادهم ؛ - فإنما دعوك إلى الحرب ، ولا آمن عليك أن يغروك
ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك ، ويُستنفروا إليك ، فيكونوا أشد
الناس عليك .

فيقول الحسين : فإنى أستخير الله وأنظر ما يكون .
ويأتيه « ابن الزبير » فيحدثه حديثا غير حديث هذين اللذين
سبقاه ، يحدثه حديثا يحفره شيئا ويرده شيئا ، فيقول له : ما أدرى
كيف تركنا هؤلاء القوم وقد كففتنا عنهم ونحن أبناء
المهاجرين ، وؤلاة هذا الأمر ، خبرنى ما تريد أن تصنع ؟
فيقول له الحسين : لقد حدثت نفسى بأنى السكوفة ، ولقد
كتبت إلى شيعتى بها وأشراف الناس ، وأستخير الله .
فيقول له ابن الزبير : أما لو كان لى بها مثل شيعتك
ما عدلتُ عنها .

و « ابن الزبير » ذو غرض : يريد أن يبعد « الحسين » عن
مكة ليخلو له الجوبها ، وكأنه أحس ذلك فى وجه « الحسين »
وخشى أن « يتهم فيما قال » ، فعاد يقول : لو أقمْتَ بالحجاز ثم أردت
الأمر ها هنا ما خالفنا عليك ، وساعدناك وبايعناك ونصحننا لك .

وكأنه أراد أن يطمئن ما « الحسين » فاعل ، وأنصت يستمع إلى « الحسين » يجيب جوابا ما كان أحرصه على أن يبلغه ، فإذا « الحسين » يقول : « إن أبي حدثني أن لها كبشا ، به تستعمل حرمتها ، فما أحب أن أكون ذلك الكبش » .

وهنا يطمئن « ابن الزبير » أن « الحسين » خارج لا محالة ، وكأنه أراد أن يضم إلى هذا المغنم الذي وقع له مغنما آخر فقال له : إن شئت توليني أنا الأمر ، فتطاع ولا تعصى .

ولكن « الحسين » كان أدرى بما يريد « ابن الزبير » ، كان « ابن الزبير » يريد أن يكون صاحب بعض الأمر حياة « الحسين » ، وصاحبه كله إن مات « الحسين » ، وما كان « الحسين » ذا غفلة ، يغلبه « ابن الزبير » على حقه في هذا اليأس وتلك السهولة ، فالتفت « الحسين » إلى « ابن الزبير » وهو يقول : ولا أريد هذا أيضا .

وخرج « ابن الزبير » عن « الحسين » وقد اطمأن إلى شيء ولم يطمئن إلى شيء ، وابتغت « الحسين » إلى الناس من حوله

يقول لهم : أندرون ما يقول هذا ؟

فيقول الناس : لاندري ، جعلنا الله فداك .

فيقول الحسين : إنه يقول : أقم في هذا المسجد أجمع لك
الناس ، والله لأن أقتل خارجا منها بشبر أحب إلى من أن أقتل فيها ،
ولأن أقتل خارجا منها بشبرين أحب من أن أقتل خارجا منها
بشبر . وايم الله لو كنت في حجر لاستخرجوني حتى يقضوا
بي حاجتهم .

ويطرق « الحسين » ثم يقول : إن هذا - يعني ابن الزبير -
ليس شيء من الدنيا أحب إليه من أن أخرج من الحجاز ، وقد
علم أن الناس لا يعدلون بي ، فودّ أني خرجت حتى يخاوله .

لقد علم « الحسين » أن الحجاز يضم حوله أهل الرأي، ولكنه لا يضم حوله أهل الحرب، ولقد علم « الحسين » أن أهل الرأي لا يغنون في مثل تلك الفتنة قدر ما يُغنى أهل الحرب؛ لهذا كان عزمه على أن يخرج إلى العراق ويترك الحجاز، ثم هو إذا كسب العراق بأهل الحرب فسوف يكسب الحجاز بأهل الرأي، وما عليه أن يُخلى الحجاز إلى حين .

ولقد علم أهل « الحسين » أنه ما بقى في الحجاز فهم ضامنون بحياته شيئاً؛ وإن قل، وأنه إن خرج إلى العراق فهم متوجسون أن يُخذل « الحسين »، فيموت عليهم ذلك القليل الذي قد ينمو مع الزمن . من أجل ذلك عاد إليه « ابن عباس » يقول : إني أتصبر ولا أصبر؛ إني أخوف عليك في هذا الوجه الهلاك والاستئصال . إن أهل العراق قومٌ غدر فلا تَقْرِبْهُمْ ، أقم في هذا البلد فإنك سيد أهل الحجاز، فإن كان أهل العراق يُريدونك — كما زعموا — فاكتب إليهم فليُعينفوا عاملهم وعُدوهم، ثم اقدم

عليهم ، فإن أبيت إلا أن تخرج فسر إلى اليمن ، فإن بها حصونا
وشعاباً ، وهى أرض عريضة طويلة ، ولأبيك بها شيعة . وأنت
عن الناس فى عزلة ، فتكتب إلى الناس ، وترسل رسلك وتبعث
دعائك ، فإني أرجو أن يأتيك عند ذلك الذى تحب
فى عافية .

فيقول له الحسين : يا بن عم ، إني والله لأعلم أنك ناصح مشفق ،
وقد أزمعت وأجمعت المسير .

* * *

وهكذا ترى الرأى قد اختلفت وجوهه :

فالحسين ينظر إلى الدعوة ولا ينظر إلى نفسه ، لا يرى
أن يشكل عن أنصاره وقد أثارهم ، فلا يجدهم بعدد معه إن
حاول أن يُشيرهم .

ويرى أن هذا الأمن الذى ينشدونه له لن يغنى إلا
هؤلاء المشيرين من حوله ، يأنسون به حياته وادعين
مطمئنين ، واسكنه سوف ينفذت فى عضد أنصاره ، ويخدم جذوة
هذا الحق فى نفوسهم ، كما أخدمتها مهادنة أخيه « الحسن » لمعاوية .

ويرى أن أباه حين ولّى مقتولا كان خيرا من أخيه حين ولي
غير مقتول .

ويرى أن الثورة لا بد لزعيمها من أن يركب الصعب ،
لا يختاط حتى يُسحق من بعده على ركوبه ، وأنه إن هو حمل
اليسير فيها حملوا هم ما هو أيسر منه ، وانكفتوا لم يحققوا شيئا .
ويرى أنه يدبر لمن بعده ، فلا عليه أن يمضى هو بالغرم
ليكون لمن بعده الغنم .

وكان « ابن عباس » يرى أن « الحسين » إن فاتهم فقد فات
الدعوة من يحمل رايتها .

ويرى أنهم به مُحتمون ؛ فإن هو قُتل هان قتلهم إلى أعدائهم .
ويرى أن الدعوة لمّا تستقم في النفوس ، لمّا يعلمه عن
أهل العراق — وهم أكثر الناس إيماناً بها كما يبدو — وأن بقاء
الحسين ، داعياً فيه ما يكفل لهذه الدعوة الدخول إلى القلوب لئلاها
ويرى أن بقاء « الحسين » لهذه خير له ولهم من ذهابه ،
والنفوس لم تتصل بالدعوة اتصالاً قوياً .

ولكن الأمر سيمضى على ما رأى « الحسين » لا على ما رأى
« ابن عباس » ، فلم يجد « ابن عباس » جديداً يثنى به « الحسين »
عماراً ، ولكنه أحب أن يدخل إلى قلبه من باب آخر ، فقال
له : إن كنت سائراً فلا تسر بنساءك وصبيبتك ، فإنى لخائف
أن تُقتل كما قتل عثمان ، ونساؤه وولداه ينظرون إليه .
وجد « ابن عباس » هذه لا تهول « الحسين » ، فiaخذ في
أخرى ويمضى يقول له :

لقد أقررت عين « ابن الزبير » بخروجك من الحجاز
وهو اليوم لا ينظر إليه أحدٌ معك .

فلا يلين له « الحسين » . ويلتفت إليه « ابن عباس »
مغضباً ، وكأنه هم أن يخرج عن القول إلى فعل ، ولكنه قبل أن
يفعل أحب أن يتبين أثر ما سوف يفعل في نفس « الحسين » إن
هو فعل . فقال له : والله الذى لا إله إلا هو ، لو أعلم أنى أخذت
بشعرك وناصيتك — حتى يجتمع علينا الناس — أطعنى فأقت

أفعلت ذلك .

فيجد « الحسين » قد كاد يُنكرها عليه ، فيسكن متخاذلا ،
ويقوم عنه وهو يردد : قرّت عينك يا « ابن الزبير » ثم ينشد :
يا لك من قنبرة بمعمر خلا لك الجوف فيضى وأصغرى
ونقّرى ما شئت أن تُنقّرى
لا بد يوما أن تصادى فاصبرى
ثم يقول — وكأنه يخاطب ابن الزبير — : هذا الحسين
يخرج إلى العراق يخليّك والحجاز .

ويخرج « الحسين » من مكة في طريقه إلى الكوفة فيمر
 بالأنعم ، وهناك يلقى عيراً قد أقبلت من اليمن ، بعث بها إلى « يزيد »
 عامله عليها ، فيأخذها « الحسين » ويقول لأصحاب الإبل : من
 أحب منكم أن يمضي معنا إلى العراق أو فينا كراءه وأحسننا صحبته ،
 ومن أحب أن يفارقنا من مكاننا أعطيناه نصيبه من الكراء .
 ففارقه منهم أناس فأعطاهم حقهم ، ومضى معه أناس فأعطاهم
 كراءهم وكساءهم .

* * *

غرض خرج إليه « الحسين » ، ولم يملك له أهبة ، فكل
 ما وقعت عليه يداه من مغنم فهو أهبة إليه ، وعامة الناس في
 ذلك بين يدي فتنة يريدون أن يخرجوا منها إلى مأمن ، يحسبونه
 هنا فيميلون ، ويحسبونه هناك فيمضون ، ويغلبهم على أمرهم هذا
 فينصاعون ، ويسوقهم إليه ذاك فيخرجون ؛ لأنهم لم يكن لهم
 رأى يدبرونه ، ولا كلمة يجتمعون عليها .

ويعضى «الحسين» بمن معه حتى يباغ «الصفاح» فيلقاه الفرزدق الشاعر، وقلبه مع «الحسين» ، فدعوه له وهو يقول : أعطاك الله سؤالك وأملك فيما تحب .

ويأنس به «الحسين» فيقول يسأله : يمين لي خبر الناس خلفك .

فيقول الفرزدق : على الخير وقعت ، قلوب الناس معك ، وسُيوفهم مع بني أمية ، والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء .

ولقد صدق الفرزدق شيئاً ، وإن كان لم يباغ الصدق كله . فما دخل إلا أن هذه الدعوة قلوب الناس فاستوعبها ، ولو صح لكانت سيوفهم طوع قلوبهم ، ولكنه كان إيماناً لما يستوعب القلوب ، لهذا كانت القلوب ناحيةً والسيوف ناحيةً أخرى .

* * *

ولكن «الحسين» كما قلنا غير راجع ، فيقول للفرزدق : صدقت ، لله الأمر ، يفعل ما يشاء ، إن نزل القضاء بما نحب

فنهجد الله على نعمائه ، وهو المستعان على أداء الشكر ؛ وإن
حال القضا دون الرجاء ؛ فلم يعتمد من كان الحق نيته والتقوى
سريته .

ويمضى « الحسين » فى طريقه فيُدركه ولدا « عبد الله
أبن جعفر » : عدن ومحمد ، بكتاب أبيهما إليه يقول له فيه : « أسألك
بالله لما انصرفت حين تقرأ كتابي هذا ، فإنى مشفق عليك
من هذا الوجه أن يكون فيه هلاك واستئصال أهل
بيتك ، وإنك إن هلكك اليوم طففى نور الأرض ، بإيك علم
المهتدين ، ورجاء المؤمنين ، فلا تعجل بالسير . »

ولا يجزى « عبد الله بن جعفر » بهذه : بل يسعى إلى
« عمرو بن سعيد بن العاص » ، وكان أميراً يزيد على الحجاز ،
فيقول له : اكتب للحسين كتاباً تجعل له الأمان فيه ونمّنيه
فيه البر والصلة ، واسأله الرجوع .

ويستجيب عمرو « عبد الله » ويرسل بهذا الذى طلب كتاباً
يبعثه إلى الحسين ، يحمله إليه أخوه « يحيى بن سعيد » ، و معه

« عبد الله بن جعفر » .

ويدركه « يحيى بن سعيد » ، و « عبد الله بن جعفر » ببعض الطريق ، ويقرآن عليه كتاب « عمرو بن سعيد » ، ويجهدان معه ليحملاه على أن يرجع ، فلا يفعل .

فلقد امتلأت نفس « الحسين » بغرضه الذي خرج يسعى إليه ، لم يَسْعُدْ يقوى صارف أن يصرفه عنه ، حتى لقد رأى نفسه بين يدي هذا الغرض مأمورة ، يُملى عليها عقله الباطن ، وتوحي إليه الرؤى ، وما كان لمثل « الحسين » أن يتنكر لما يُملى عليه عقله الباطن ، أو أن يخالف عن تلك الرؤيا التي رآها ، فقد رأى أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يأمره بأمر يرضى له ، فمضى لهذا الأمر الذي أمره به رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرجع عنه .

وإن كان لم يُفصح للناس عنه حين سألوه : ما تلك الرؤيا .

فقال : ما حدثت بها أحداً ، وما أنا بمحدث بها أحداً حتى أتى ربي .

صدق « الحسين » فيما رأى ، وصدق رسول الله
صلى الله عليه وسلم فيما ألهم ، فلقد كان « الحسين »
مَسْوقاً إلى قضاء الله وقدره ، وما هو بمستطيع أن يهرب
من قضاء الله وقدره .

* * *

هذا ، و « الحسين » لما يباخه مقتل ابن عمه « مسلم بن عقيل »
ولما يبلغه مقتل « هاني » .

أما ثانيها فأهله وذووه في الكوفة ، وقد عرفت من أمرهم
ما كان .

وأما أولها فأهله وذووه حول « الحسين » وما أظنك ستسمع
منهم غير كلمة النار ، تجري حارّةً على ألسنتهم ، وتحقق بها
قلوبهم .

فما كان « مسلم بن عقيل » هيناً على أهله وذويه ، وما كان
« مسلم بن عقيل » هيناً على « الحسين » ، وما أبعد « الحسين »
ولا أبعد آل « مسلم بن عقيل » عن الجاهلية كثيراً فينسوا الوتر
وينسوا النار .

فانضم هذا إلى ما عند « الحسين » من عزم أخير على أن
يسير ، على الرغم من تشديد نفر من أصحابه ، كانوا من أنصاره
ولم يكونوا من أهله ، فعز عليهم مقتل « مسلم » ولكنه هالهم هذا العزم

خافوا وتعلّقوا بالحسين يرجونه ألا يمضى .
ولكنهم على هذا كانوا يُشفقون للموتورين من آل
« مسلم » ، فلما رأوا رأيهم حين أشاروا ، ولم يملكوا قلوبهم حين
وَجِدَتْ على القَتِيل ، وحين رثت للموتورين ، لهذا لم يُغنِ
رأيهم شيئاً ، وغلبتهم كلمة « الحسين » ، على هذا رأى حين سمعوه
يقول : لا خير في العيش بعد هؤلاء . وغلبتهم على رأيهم كلمات
أخرى صاح بها نفر من الموتورين ومن غير الموتورين ، وهم
يقولون للحسين : ما أنت مثل « مسلم بن عقيل » ، ولو قدمت
الكوفة لكان الناس أسرع إليك .

ومضى « الحسين » لا يمر بماء إلا اتبعه من عليه ، فإذا هو
كثير الجند بمن انضم إليه ، وإذا هذه الكثرة المضمة ترد أصحابه
المتهيئين إلى إقدام ، وتزيد أصحابه غير المنرددين إقداماً .
وإذا حادثة أخرى تنضم إلى ما كان فقتل ما بقي من تهيب
في نفوس هؤلاء المهيئين ، وتملأ قلوب غيرهم حماساً .
فقد كان « زهير بن القين البجلي » خرج للحج — وكان

عثمانيا — فلما عاد من حجه جمعه و « الحسين » الطريق ، وكان يسائر الحسين إلا أنه لا ينزل معه ، واستدعاه « الحسين » فلم يجبه ، ثم أجابه على كثره منه .

وإذا هو حين خرج من عند « الحسين » يدعو أصحابه إليه يقول لهم : « من أحب منكم فليتبعني ، وإلا فإنه آخر العهد به وسأحدثكم حديثا : غزونا بـ « بلنجر »^(١) ، ففتحت علينا وأصبنا غنائم فقصر حنا . وكان معنا « سلمان الفارسي » فقال لنا : إذا أدركنم سيد شباب أهل محمد فكونوا أشدَّ فرحاً بقتالكم معه عما أصبتم اليوم من الغنائم ؛ فأمّا أنا فاستودعكم الله . ثم طلق زوجته وهو يقول لها : الحق يا هالك ، فإني لا أحب أن يُصيبك في سببي إلا خيرا . ولزم « الحسين » .

وهكذا مضى « الحسين » بمن معه قد نسوا كل ما بدا لهم من رأى صارف ، وامتألت نفوسهم بكل ما يدهمهم إلى القتال دفعا ، لا يثنيهم بعده هذا من يعرض لهم ببعض الطريق يلفتهم عما عقدوا عليه النية ، إلى ما نبذوه وراءهم ظهريّا .

كذلك الذى كان من « عبد الله بن مطيع » حين لقي « الحسين » فى طريقه إلى الكوفة على ماء من مياه العرب ، فتعلق به يستحلفه وهو يقول له : بأبى أنت وأمى يابن رسول الله ، ما أقدمك ؟ ... أذكرك الله يابن رسول الله وحرمة الإسلام أن تُنهنك ! ... أنشدك الله فى حرمة قريش ! ... أنشدك الله فى حرمة العرب ! ... فوالله لئن طلبت ما فى أيدي بنى أمية ليقتلنك ، واثن قتلوك لايهابون أحداً أبداً ، والله إنها لحرمة الإسلام ، وحرمة قريش ، وحرمة العرب ، فلا تفعل ولا تأت الكوفة ولا تعرض نفسك لبنى أمية .



كلمة لو قيلت قبل اليوم لو جدت أذنا صاغية ، ولما كانت إلى كلمة « ابن عباس » ... التى مرت بك ... ذات صدق ، فلقد كان أخوف ما يخافه « ابن عباس » ، وأخوف ما يخافه « زهير بن القين » أن يعضى « الحسين » مقتولا ، فلا يجد الهاشميون ومن إلى الهاشميين رجلاً قوياً يلتفتون حوله .

ولقد كان أخوف ما يخافه « ابن عباس » ، وأخوف ما يخافه

« زهير ، أن يهون أشراف الهاشميين وغير الهاشميين من أتباعهم
على بنى أمية ؛ فلا يعبتون بعدها بمن يقتلون .
ولكن الناس — كما قلت لك — لم يعد لهم رأى يُقَلِّبونه ،
ولما أصبحوا بين يدي ثار يسمعون إليه ، وقد أصبحوا قوة بمن
انضموا إليهم ، وأصبحوا أقوياء بما قرّ في آذانهم وانتهى إلى
قلوبهم من كلام « زهير بن القين البجلي » .

* * *

ويكتب « الحسين » إلى أهل الكوفة يخبرهم بمقدمه عليهم
ويستأمنهم ، ويبعث إليهم كتابه هذا مع رسول له هو « قيس
ابن مسهر الصيداوى » .

ولكن الرسول يُقبض عليه فى الطريق ، ويُسلبه القابضون
عليه إلى « ابن زياد » — وكان « ابن زياد » قد فرق شرطته فى
الطرق المفضية إلى الكوفة ، حين بلغه خروج « الحسين » إليه .
وكأنى بك تسألنى ما فعل « ابن زياد » بالرسول ؟ ... وكأنى
بك قد نسيت — وأنت تسأل — ما عرفت عن عنف « ابن زياد »
وقسوته وفحشه ، إلا أنى لا أحب أن أغيب عنك شيئاً من عنف
« ابن زياد » وقسوته وفحشه ؛ لتكون معى غير شاك فيما
وصفناه به .

فلقد أمر « ابن زياد » رسول « الحسين » هذا أن يصعد
القصر فيسب الكذاب ابن الكذاب « الحسين بن على » .
فيصعد الرسول القصر — وابن زياد يظن أنه قد ائتمروا

بأمره — فإذا الرسول يعلن بصوته المدوّى : « إن هذا الحسين ابن علي ، خير خلق الله ، ابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا رسوله إليكم ، وقد فارقتك وهو منكم غير بعيد ، فأجيئوه » .

كلية جريئة يملأها قلب شجاع . لو جرت على لسان غيره من وقعوا في يدي « ابن زياد » من قبل لغيرت مجرى الحوادث ، ولدفعت الناس الذين أظلمهم « ابن زياد » وهم له متهيبون ، إلى العناد عليه والوقوف في وجهه ، ولكنها جاءت متأخرة حين امتلأت القلوب هيبة من « ابن زياد » وخوفاً منه .

واقداً أحسها « ابن زياد » مقلقة ذات خطر ، وأحس إن هو فوّتها بعقوبة رقيقة عادلة أحييت في القلوب ما أماته هو بأسلوبه القاسي العنيف ، واقتلعت ما غرس من أصوله .

لهذا التفت « ابن زياد » إلى جنده ، لم يفكر إلا في مادبره . لهذا الرسول من عذاب شديد ، وهو يقول لهم آمرا : ارموا به من أعلى القصر .

فإذا هذا الرسول على الأرض وقد تقطّع جسمه إرباً إرباً .

وقد غرق في دمه .

. . .

لم يفعل هذه وحدها « ابن زياد » بهذا الرسول ؛ بل فعلها
برسول آخر للحسين ، وكان هذا الرسول أخا للحسين من
الرضاعة ، وهو : « عبد الله بن بقطر » .

وكما وقع « قيس بن مسهر » في يدي « ابن زياد » وقع « عبد الله
ابن بقطر » في يديه ، وكما أمر « ابن زياد » « قيس بن مسهر » أن
يصعد فوق القصر فيلعن الكذاب ابن الكذاب ، أمر
« ابن بقطر » أن يصعد القصر فيلعن الكذاب ابن الكذاب ، وكما
كان من « قيس بن مسهر » كان من « ابن بقطر » ، وكما نكّل
« ابن زياد » بـ « ابن مسهر » نكّل بـ « ابن بقطر » .

غير أن قتل « ابن مسهر » على هذه الصورة التي مرت بك جرى
وكان المسمى فيها واحدا ، هو : « ابن زياد » ، ولكن قتل
« ابن بقطر » جرى ، وقد انضم إلى الإساءة فيه مسمى آخر غير
« ابن زياد » . فما أسرع ما يتعاون على الشر من تعمّر قلوبهم بالشر ،
يسبقهم إليه أجرؤهم عليه ! ...

فلقد أدرك « ابن بقطر » الأرض وبه رمق ، بعد أن
تكسرت عظامه . فإذا رَجُل من أتباع « ابن زياد » يسرع إليه
لا ليخفف عن هذا الجريح أوبعينه ، ولكن ليذبحه
فيجهز عليه .

وإذا ما اتجه إليه نفر من الناس أنستهم الرحمة بالشق الممسق
رهبة ، « ابن زياد » يلومونه ، استخزى بينهم ورد عليهم يقول :
لما أردت أن أريجه .

. . .

ولقد مَرَّ قتل « ابن مسهر » وما بلغ « الحسين » عنه شيء ؛
ولكن مَرَّ قتل « ابن بقطر » وقد انتهى إلى « الحسين »
عنه كل شيء .

عندها أدرك « الحسين » أن أخاه من الرضاة قد بلغ رسالته
فوفى ، وعندها أدرك « الحسين » أن شيعته بالكوفة قد بلغت
الرسالة فلم يفعلوا شيئاً ، ففت ذلك في عضده ، والتفت إلى
أصحابه وقد عز عليه أن يركب بهم طريقاً غير مأمون ، وأن يدفع
بهم إلى مالا يأمنه عليهم فخرکه الوفاء لمن معه ، والحرص على حياة

من شايعوه على أمره ، أن يخطبهم فيقول : « خذلنا شيعتنا ، فمن أحب أن ينصرف فليُنصرف ، ليس عليه منّا ذمام .

وكأنى بالحسين قد أحس من الأعراب حوله ما قد دار بخلد هم حين التفوا به واجتمعوا حوله ، وأنهم قادمون معه على بلد قد استقامت له طاعة أهله ، وإن هي إلاّ جولة أو اثنتان ، ثم ينقلبون بالخير الكثير والمغنم الواسع .

وكأنى بالحسين وقد خشى أن يعرف الناس فيما بلغهم من قتل « ابن بقطر » ، وتخاذل الشيعة ما يفرعونهم ، فيرتدون عنه عن غير أمره ، مشفقين من هذه الحرب التي هم مستقبلوها نكراء وقد ظنوها ليس فيها غناء .

وكأنى بالحسين وقد أراد أن يكون الناصح الأمين : كما هو العهد به ، لا يغترّ ولا يخذع ، فأحب أن يكشف للناس معه عما سيُلاقون . ولقد صدق « الحسين » ، ظنّه ؛ فما إن قال ما قال حتى تفرّق هؤلاء الذين التفوا حوله راغبين فيه شيئاً ، وطامعين في المغانم شيئاً ، فإذا حياتهم أغلى عليهم من هذه الرغبة وذلك الطمع ، ومضى « الحسين » إلى طبيئته بمن بقى معه من أصحابه الذين خرجوا معه من مكة .

لقد كان الحسين ، غير هؤلاء جميعا ، يؤمن أنه مقبوم
 نفسه في شر كبير ، ولكنه يؤمن معه بأنه بين يدي واجب
 كبير ، ويؤمن بأن شيعته قد اتخذوا ؛ ولكنه يؤمن مع ذلك
 بأن عليه أن ياقاهم ، عسى أن يغني هذا اللقاء فيتوضه ما فات ، ثم
 هو — كما قلت لك — مدفوع إلى ذلك دفعا ، يستجبه قضاء الله
 وقدره ، إلى حيث يكرن قضاء الله وقدره .

لهذا لم يسمع الحسين إلى هذا العري الذي لقيه غير بعيد
 من الكوفة ، وكان على علم بما أعد القوم له ، وكان على علم
 بما انتهى إليه أمر الشيعة ، فقال : أنشدك الله لما انصرفت ،
 فوالله ما تقدم إلا على الأسنة وخذ السيوف ، وإن هؤلاء الذين
 بعثوا إليك لو كانوا كفوك مؤونة القتال ، ووطئوا لك
 الأشياء فقد مدت عليهم ؛ — لكان ذلك رأيا ؛ فأما على هذه الحال
 التي تذكرها فلا أرى لك أن تفعل .

فما كان جواب الحسين إلا أن قال : إنه لا يخفى على

ماذكرت ، ولكن الله عز وجل لا يُغلب على أمره .

* * *

ويمضى الحسين على رأس جيشه المكدود ، أما عن عناء السير ومشقة السفر فلا تبالى الجيوش كم تجشمت ، وكم أياها طوتها على الجوع والظما ، وكم جرعة كدرة ارتشفت ، ولقمة قدرة أكلت ، كما لا يشفق قادة الجيوش بما يعاني الجسد من هذا كله ؛ اللهم إلا أن يحرمهم إلى متلفة . فلذلك كله خلُق الجندي ، وعلى هذا كله يُمرَّس الجندي .

أما الذى يدخل على الجيوش فيؤوهن من بأسها ، ويفل من عزِّها ، ويؤرد النفوسَ جزعة ، والقلوب هلعة ؛ - فذلك هو ماتخشاه الجيوش ، ويخشاه قبلها قادتها .

ولقد دخل على جيش الحسين من هذا كله شيء كبير ، فمذ غادر هذا الجيش المدينة يقصد قصْد مكة ، وهو بين فتن هو جاء ، وآراء مضطربة ، وكلماتٍ موزّعة ، لا يسكاد يجتمع على شيء إلا بداله غيره ، ولا يسكاد يسك بما بداله حتى يرتدّ إلى ما ترك ، وإذا هو آخر الأمر يضرب فى الأرض بخطى

ثقيلة ، وعقول موزعة ، ونفوس مبالغة ، لا يدري ما هو ملاق
في يومه ، ولا ما هو مستقبل في غده . ثم هو أجهل ما يكون بما
عبأه له « ابن زياد ، وما أعدّ له .

ليست له طليعة كاشفة ، ولا عيون راصدة ، ولا أدلاء
هادون ، كما ليس له مُعْتَمِد من عتاد ، ولا مُدَّخِر من زاد ،
ولا خُطْطَة في إقبال ولا إدبار .

تحس ذلك جليًّا حين أدرك هذا الجيش « شراف » مع منتصف
النهار ، وقد غطت الشمس الأرض فكشف لهم عن كل ما عليها ، وإذا
رجل من جيش الحسين يكبر ، وإذا أصحابه يفزعون إليه يستوخطونه
لم كان تكبيره ؟ فيقول : إني أرى نخلا — يعني أنهم قد أشرفوا
على الريف ، وهذه نخلاته ليس بينهم وبين أن يصيبوا من ثمرها
إلا خطوات ويعني هذا الرجل أنهم قد أشرفوا على حدود العراق ،
وهم على أن يدخلوه دون أن يلقوا كيذا .

فيقف إليه رجلان من بني أسد ، كما على علم بمواقع الأقدام
« فيقولان ، نحن في أرض لا عهد لها بنخل قط .

وعندها تشرئبُ عُنق « الحسين » ينظره وتشرئبُ أعناق القوم

ينظرون ، فإذا مارآه هذا الرجل نخلا إنما هو خيل العدو : وهذه
هو اديها تهتز على صفحة اليبداء ، فيخيّل الجوع شيئا ، ويخيّل اليأس
شيئا ، فيحسبون أنهم أدركو الريف ، وأنهم على أبواب العراق .
وهنا يقف هذا الجيش المكدود ليستقبل جديدا لم يكن في
حسابه ، يصحو عليه كما يصحو النائم المفزع ، لا يدري أهو لا يزال
موصولا بنومه ، أم هو قد استيقظ منه .

ويلتفت الحسين إلى هذين الرجلين الأسديين ليستشيرهما ،
وقد عرف ما عندهما من خبرة ، وهو يقول لهما : وهل لنا
من ملجأ نلجأ إليه نجعله في ظهورنا فنستقبل القوم من
وجه واحد ؟

فيدلانه على جبل إلى جنبه عن يساره ، وسرعان ما مال
إليه « الحسين » بمن معه ، وسرعان ما تبعهم خيل العدو إليه
فكانوا تلقاهم .

. . .

ولم يكن هذا الجيش الذي خرج للقاء « الحسين » من
الكوفة ينتظم غير أهل الكوفة ، ولم يكن قائد هذا الجيش

الذى خرج على هذا الجيش من الكوفة إلا رجلا من أشرف الكوفة .

ترى أين هم شيعته الذين كاثبوه ؟ ... وترى أين هم جنده الذين خرج ليلقاهم ليعينوه ؟

إنهم كانوا لا شك من أهل الكوفة ، وهام أولاء أهل الكوفة أمامه ، ولكنهم جاؤوه حربا عليه لا مددا له .

ولكن ما باله لا يلقاهم فيذكّرهم بما كان منهم إليه ، فقد يكون « ابن زياد » ألّسهم عليه وغرّهم عمّا يؤمنون به ، وبذل لهم ما يفسد نفوسهم .

وعلى هذا صم « الحسين » ، فخرج إليهم يخطبهم وهو يقول :
« أيها الناس ، إنها معذرة إلى الله وإليكم ، إنى لم آتكم حتى أتنى كتبكم ورؤساكم أن أقدم إلينا ، فإيس لنا إمام ، لعل الله أن يجعلنا بك على الهدى . وقد جئتكم ، فإن تعطوني ما أطمئن إليه من عمودكم أقدم مصركم ، وإن لم تفعلوا كنتم بقدسي كارهين انصرفت عنكم إلى المكان الذى أقبلت منه . »

وينبرى له « الحرث بن يزيد التيمي » قائد هذا الجيش الكوفى

إليه — يقول : إنا والله ما ندرى ما هذه الكتب والرسائل التي تذكر .

عندها يُخرج « الحسين » ، خرجين مملوءين صحفا ، فينثرها بين يدي « الحر » ، والقوم ينظرون .

فيقول له « الحر » ، في حزم ، وكأنه لم ير شيئا : فإنا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك .

* * *

موقف جديد غير ما سبقه من مواقف ، ما كان أولى « الحسين » أن يفقه منذ أن فكّر في الأمر ، ومنذ أن كانت له عليه عزيمة .

ولكن الأمور — كما تبين لك — مرت عجلة مضطربة ، يدفع إليها أملٌ أولا ، ويُنهض إليها حقٌ ثانيا ، وتسوق الأحداث مع هذا وذاك ما يحفز إلى هذا الأمل وذاك الحق ، وما يصرف عن هذا الأمل وذاك الحق ، ولكن النفوس إذا امتلأت به — هذا الأمل وتعلقت بذلك الحق كانت آبي على ما يصرفها ، وأُمّيل إلى ما يدفعها ، وكذلك كان الحسين .

ولكن « الحسين » في ساعته هذه بين يدي حقيقة مُرة تصرفه
عن أمله وعن حقه ، وهو لا يملك أن يمضي ، ولكنه يؤثر أن
ينصرف . ولقد خال إن هو فعل أنه صارفٌ عنه عدوه
ومُنصرف هو إلى حيث يريد .

ولقد كانت هذه هيئته على « ابن زياد » أن يُعطيا . ولكنه
داهية محنك يعرف ما عند الهاشميين ولا يحمله ، ويعرف أن
« الحسين » إن نجح من هذه فهو لا شك مدبرٌ لغيرها ، وهو من
أجل ذلك قد أوصى قائده ألا يدع « الحسين » يرجع ؛ بل
يأتيه به .

وكان « الحسين » هو الآخر داهية محنك ، يعرف ما عند
الأمويين ولا يحمله ، ويعرف إن هو أسلم نفسه إلى « ابن زياد »
فقد قضى على دعوته أولا ، وقد يقضى على حياته ثانيا ، ولم تكن
حياته إلى دعوته شيئا يأبه له الحسين ، ولكن كانت دعوته إلى
حياته هو ما يأبه له . من أجل ذلك أبى على قائد « ابن زياد » أن
يمضي معه إليه ، وقال له بعد أن أخبره « الحر بن يزيد التميمي » بأنه
غير تاركه حتى يقدم به على « ابن زياد » : الموت أدنى لك من ذلك .

ولقد هم « الحسين » لينصرف بجيشه ، فمنعه « الحر » . ولقد
أغلظ « الحسين » للحر ، فلم يُغلظ « الحر » للحسين ، وما نظن
القوم الكوفيين قد تجردوا عن كل ما يكون للحسين من
تعظيمه ، وإن كانوا قد اضطروا أن يتجردوا عن غيره .

ولقد رفق « الحر » بالحسين يريد أن يرزقه الله فيما ابتلى به
العافية ، ولقد رزق الله « الحر » هذه العافية فيما ظن ، وهو يشير
على « الحسين » بأن يأخذ طريقها لا تتدخله الكوفة ولا تردده إلى
المدينة ، وهو يريد بذلك أن يكسب وقتا يكتب هو فيه إلى
« ابن زياد » ، ويكتب « الحسين » فيه إلى « يزيد » أو « ابن زياد » ،
لعل الله أن يأتي بأمر يكون فيه الفرج .

ويسير «الحسين» ويسيره «الحر»، و«الحسين» طامع في قلوب هؤلاء الجند الكوفيين الذين مضوا إلى جنبه يسايرونه، يخطبهم ويذكّرهم وعودهم، ولكنه كان في خطبه هذه شديداً عليهم عنيفاً بهم، ولقد أثر له من قوله فيهم: «قد أتتني كتبكم ورسلكم ببيعكم وأنكم لا تسلمونني ولا تحذلونني، فإن أقمتكم على بيعكم تصيدوا رشدكم». وأنا الحسين بن علي بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، نفسي مع نفسيكم، وأهلي مع أهلكم. فلاكم في أسوة. وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدي وخلعتم بيعتي فاعمرى ما هي إلكم بنكير. لقد فعلتموها بأبي وأخي، وابن عمي «مسلم بن عقيل»، والمغرور من اغتربكم فخطكم ونصيبكم ضيعكم، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه. وسيغنى الله عنكم.

وكلما تغن خطبته الأولى فيهم لم تغن خطبته الثانية، والقوم هم القوم مسيئون لا يخبرون، وقائدهم هو قائدهم مسير هو الآخر لا يخبر،

ويخاف أن يبلغ « ابن زياد » ، عنه أنه مال أو حاد أو قتر ، فيقول
للحسين وهو يخوفه : أذكرك الله في نفسك ، فإني أشهد أني قاتلت
لتقتلني .

فيمهج « الحسين » لما قال « الحر » ، ويلتفت إليه « غضبا وهو
يقول له :

أبالموت تخوفني ؟ . وهل يبدو بكم الخطب أن تقتلوني ،
ما أدري ما أقول لك ، ولكنني أقول كما قال أخو الأوس لابن
عمه ، وهو يريد نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلى أين
تذهب فإنك مقتول ؟ فيقول هذا الأوس :

سأمضي وما بالموت عار على الفتي

إذا مانوى خيرا وجاهد مسلما

وهكذا رأى « الحسين » ، فيما يُعرض عليه ذلك الأبدي فلم
يرضه ، ورأى نفسه في محنة ، والمحن كما تضيق تنفرج ، يلا اليأس
قلب الضعفاء فيجبنون ويصغرون . وتتأني على اليأس قلوب
الأقوياء فلا يهنون .

ولقد كان «الحسين» من هؤلاء الأقوياء فلم يَـمَـنْ ، ومضى في
شهره و«الحر» يُسَايرُه .

وفيه أـهـم ماضون يخبطون في الأرض لا تُـعـرِف لهم وجهة ،
ولكنهم على كل حال غير قاصدين قَصْد الكوفة ، ولا قاصدين
قَصْد المدينة ، إذا هم بأربعة نفر قد أقبلوا من الكوفة على
رواحلهم .

وكان «الحسين» على الرغم مما بدا له من أهل الكوفة لا يزال
يُـرِـيـطُه أـمـلٌ بهم ، فلقد كان يؤمن في قرارة نفسه أنهم أنصاره ،
ولكن غلبه «ابن زياد» عليهم ، وأهم بين يدي دنيا فيها كل
ما يُغري من مال وجاه ونشب ، وقد ملكه «ابن زياد» باسم «يزيد» ،
وفيها كل ما يُغري بـنـصـرِه على حقه ، طمعا في ثواب وطمعا في
قربى من آل البيت ، وقد ملك هو أسبأها ، ولكنه لم يستطع أن
يملا بها قلوبهم لئسوا ما أغراهم به «ابن زياد» .

وعلى نحو ما عرف «الحسين» أهل الكوفة عرفهم «الحر بن
يزيد التميمي» ، من أجل هذا تطأح الحسين إلى هؤلاء النفر الأربعة
الذين طالعوهم من الكوفة ، وهو يظن أن عندهم خبرا ينتفع به، ومن

أجل هذا تطاع «الحر» إلى «ؤلاء النفر» وهو يظن أن عندهم شرًا
يُفسد عليه أمره .

ومن أجل هذا أراد «الحسين» أن يلقاهم ليعرف ما عندهم
ومن أجل هذا أراد «الحر» أن يمنعهم عنه ، ويقول «الحر» : إن
«ؤلاء النفر» من أهل الكوفة وأنا حابسهم أو رادهم .
ويقول الحسين : لا مَعْنَهُم مِمَّا أَمْنَعُ مِنْهُ نَفْسِي ، إِنَّمَا هَؤُلَاءِ
أَصَارِي وإِذَا جَاءَ مِنْهُمْ بِمَنْزِلَةٍ مِنْ جَاءَ مَعِيَ ، فَإِنْ كَفَفْتُ عَنْهُمْ
وإِلَّا نَاجَزْتُكَ .

ولقد كان «الحر» بن يزيد «يبغى العاقبة لنفسه ما استطاع» ولم
ير فيما طلب «الحسين» كبير بأس ، وهل هم غير أربعة
لا يغنون شيئًا ، ولقد ترك الكوفة لابن زياد ، وترك «ابن زياد»
«الحسين» له ، فكف عنهم .

ويحاس إليهم «الحسين» يستخبرهم خبر الناس خلفهم ، وهو
يطمع في أن يسمع منهم غير ما بلغه عنهم ، فيوجه الأمور توجيهاً
جديداً . فينبغي للحسين أحدهم وهو يقول : أما أشرف الناس
فقد أعظم رشوتهم ، ومأثرت غرارتهم ، فهم إلب واحد عليك .

وأما سائر الناس بعدهم فإن قلوبهم تهوى إليك وسُيوفهم غداً
مشهورة عليك .

ويلتفت إليه ثانیهم وهو يقول : « لقد رأيت قبل خروجي من
الكوفة يوم ظهر الكوفة وفيه من الناس ما لم ترَ عيناى جمعا في
صعيد واحد أكثر منه قط ليسيروا . فأشهدك الله إن قدّرت على
الألّا تتقدم إليه شبراً فافعل . »

فأطرق « الحسين » وهو يقول :

إن بيتنا وبين هؤلاء القوم قولا اسنا نتقدر معه على
الانصراف ، ولاندرى علام تتصرف بنا وبهم الأمور .

حيرة لا يقدر « الحسين » على أن يقضى فيها رأى ، لا يملك
 أن يرجع عنهم كما لا يملك أن يرجع إليهم . ولكنه صاحب حق
 يؤمن به ، وما يحب أن يهزم عليه ، وأن يكون الهازم له هؤلاء
 النفر من الأمويين الذين يراهم مغتصبين ثمهم غير عادلين ، وهؤلاء
 النفر من أهل الكوفة الذين كانوا له فإذا هم عليه .
 وإنها لمرة على النفس أن يهزمك خصمك بصديقتك ،
 ويغلبك بأنصارك .

ويعن « الحسين » في إطراره فإذا رأسه يخنق خفقة ثم
 يقبضه وهو يقول : « إنا لله وإنا إليه راجعون ، والحمد لله
 رب العالمين » .

فيفزع لما نطق به الحسين ابنه « علي بن الحسين » ، ويُقبل
 على أبيه آسيا وهو يسأله : « يا أبت !... جعلت فداك ، ممّ تحدث
 واسترجعت ؟ ... »

فيجيبه أبوه آسيا كذلك : « يا بني !... إني خفقت برأسي خفقة

فَهَنَّ لِي فارس على فرس فقال : « القوم يسرون ، والمهايا تسير ؛
فعلمت أن أنفسنا نُعِيت إلينا » .

فيقول علي : يا أبت ، لا أراك الله سوءا ، ألسنا
على الحق .

فيقول له الحسين : بلى ، والذي يَرْجِع إليه العباد .

فيقول علي : إذن لا تُبالي أن نموت محقين .

فيقول له الحسين : جزاك الله من ولد خيرا ، ما جزى
والدأ عن ولده .

وهكذا قَرَّ في نفس « الحسين » أن يستدبر دنياه ليستقبل
أخراه ، وهكذا اطمأن الحسين حين سمع ما سمع من ابنه أن في إثره
مَنْ سيحمل هذا الحق عنه .

ولكنه كان على هذا مُشْفِقا على أصحابه ، لا تريد أن
يعرّضهم للتلأف ، ولا أن يتركهم فريسة للعدو ، فأخذ يميل
بهم يَسْمرة ويَمَنّة ، يريد أن يفرّقهم ، ويريد أن يَنْفَضُّوا عنه
و « الحر » ، يأبى عليهم ذلك ، وهو يريد أن يسوقهم بجمعهم

إلى الكوفة فيأبون عليه .

وفيا هم في ذلك إذا راكب من الكوفة قد أقبل
عليهم فتلبثوا ينظرون على أمل ، وإذا هو يسلم على
« الحر » ، ولا يسلم على « الحسين » ، فتطلعوا ينظرون على
غير أمل .

فلقد كان هذا الراكب رسول « ابن زياد » ، إلى « الحضر »
وإذا معه كتاب إليه وإذا فيه : أما بعد ؛ فجئناك بالحسين —
أى ضيق عليه المكان — حين يبلغك كتابي ويسبق عليك
رسولي ، فلا تنزله إلا بالعراء في غير حصن وعلى غير
ماء ، وقد أمرت رسولي أن يلازمك فلا يفارقك حتى يأتي
بإفادك أمري ، والسلام .

* * *

وكان « الحر » ، كما تعلم رجلا يحب العافية ، ولكنه كان إلى
ذلك رجلا يخاف « ابن زياد » . وحب العافية في ملك الرجل
ما لم يَنفَضْه عليه الخوف ، لا سيما إذا كان هذا الحب للعافية
لونا من ألوان البقية التي كانت في قلب « الحر » .

لذلك سرعان ما استجاب « الحر » لأمر « ابن زياد » يتخذ
من وجود هذا الرسول معه عينا عليه ، ما يُبرر به هذه الاستجابة
لأمر « ابن زياد » .

فلقد ضيق « الحر » على « الحسين » ومن معه ما وسعه هذا
التضييق ، وأخذهم بالنزول على غير ماء ولا في قرية .
ويقول له الحسين ومن معه : دعنا نزل على ماء أو نحل
غريزة .

فيقول لهم الحر : لا أستطيع ، إن هذا الرجل قد بُعث
عينا على .

* * *

عند هذا ينبرى أحد رجال « الحسين » ، للحسين يقول له :
« إنه لا يكون والله بعد ما ترون إلا ما هو أشد منه يابن رسول الله ،
وإن قتال هؤلاء الساعة أهون علينا من قتال من يأتينا من بعدهم ،
فلعمرى ليأتينا من بعدهم ما لا قبيل لنا به .
فيقول الحسين : ما كنت لأبدأهم بالقتال .
وما إن يُظلمهم الغد حتى تُظلمهم شدة أخرى ،

لا تدع لهم مجالا في التفكير فيما أشار به هذا المشير بالقتال .
فقد رأوا جيشا جديدا يُبطلهم من الكوفة ، وعليه « عُمَر
ابن سعد بن أبي وقاص » ، ينضم إلى هذا الجيش الذي أحاط بهم
وعليه « الحر بن يزيد » .

* * *

ولقد كان لعمر بن سعد بن أبي وقاص، قَبْلَ أَنْ يَقْدَمَ بِحَيْشَةٍ
 مَعَ «ابن زياد» قصة، ولقد كان في هذه القصة ما يُلَاقِي ضَوْءاً
 جديداً على مانحن فيه، وما يكشف لك شيئاً عن تحوُّل الناس عن
 الأخذ من دنياهم بما يَنْفَعُهُمْ لآخرتهم، إلى الأخذ من دنياهم بما
 لا يَنْفَعُهُمْ في آخرتهم، وما يدلُّك شيئاً على أن الناس انصرفوا عن
 الغرض العام الذي يؤسِّس لدولة صالحة نَفْعُهَا لهُم جميعاً، إلى
 النَّفْعِ الخاص الذي يَمَسُّه لجأه فردى نَفْعُهُ لِأَحَادٍ مِنْهُمْ.

فلقد كان «عبيد الله بن زياد» بعث «عمر بن سعد بن أبي
 وقاص» على هذا الجيش إلى الدَّيْلَمِ؛ ليردهم إلى الطاعة بعد
 ما خرجوا عليه. فلما تمَّ له ما أراد، ولَّاه «ابن زياد» الرَّيَّ.

ثم كان ما كان من أمر «الحسين»، فكُتِبَ «ابن زياد» إلى
 «عمر بن سعد» يأمره أن يسير إلى «الحسين»، ووعدته إذا هو
 فرغ من أمر «الحسين» رده إلى عمله الذي كان عهد إليه به.

ولقد استكبرها د عمر بن سعد « أولا — أعنى أن يتوجه بجيشه إلى « الحسين » — وأباها على « ابن زياد » واستعفاها منها ثانيا .
ولكن « ابن زياد » كان ما كراً يعلم من أين تؤكل الكتف .
فما إن وصله رد « عمر بن سعد » حتى أرسل إليه يقول له : نعم ،
على أن ترُدَّ عهدي ، وهو يعنى عزله عن الرى .
وما تكاد الدنيا تذكر لد عمر بن سعد ، أو أنه سيفقد نصيبه
منها ، حتى يهلع . ويرسل إلى « ابن زياد » يقول له : أمهلنى يوماً
حتى أنظر .

ويجاس « عمر بن سعد » إلى أصحابه يسديشيرهم ، فكلهم يسير
عليه ألا يفعل ، ويأنيه « حمزة بن المغيرة بن شعبة » : « وكان ابن
أخته — فيقول له : أنشدك الله ألا تسير إلى « الحسين » فتأثم
وتقطع رحمك ، فوالله لأن تخرج من دُنياك ومالك وسلطان
الأرض ، لو كان لك خير ، من أن تلقى الله بدم « الحسين » .
فتبلغ كلمات ابن أخته من قلبه ، وينصرف عنه وهو فى ظاهر
أمره مُسجِب ، ولكنه كان فى باطن أمره رافضاً ، ويدب ليلته
ولسانه يردد :

أترك مُلك الرُّمى والرُّمى رغبتي

أَمْ ارجع مَدْموما بقتل حُسَيْن

وفي قتله النار التي ليس دونها

حِجَاب وملك الرُّمى قُرة عين

رهُوَ عَلَى ذَلِكَ يَصْبِحُ مَتَرَدِّدًا ، فَيَأْتِي «ابن زياد» ، فيقول له :

إِنَّكَ قَدْ وَلَّيْتَنِي هَذَا الْعَمَلَ وَسَمِعَ النَّاسُ بِهِ ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَنْفِذَ

لِي ذَلِكَ فَافْعَلْ ، وَابْعَثْ إِلَى الْحُسَيْنِ مِنْ أَشْرَافِ الْكُوفَةِ مَنْ لَسْتُ

أَعْنِي فِي الْحَرْبِ مَعَهُ - وَيُسَمَّى لَهُ أَنَسَا .

فيقول له «ابن زياد» : لَسْتُ أَسْتَأْمُرُكَ فِيمَنْ أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَ ،

فَإِنْ سَرْتُ بِجَنْدِنَا ، وَإِلَّا فَابْعَثْ إِلَيْنَا بَعْدِنَا .

عندها تغلب الدنيا بمتاعها «عمر بن سعد» على أمره ، وإِذْ هُوَ

يقول : فَإِنِّي سَائِر .

وعلى هذه قدم «عمر بن سعد بن أبي وقاص» على جيشه هذا :

الَّذِي كَانَ يَتَّخِذُ أَرْبَعَةَ آلَافٍ مُقَاتِلٍ ، وَعَلَى هَذِهِ أَصْبَحَ «الحسين»

يُقَاتِلُ هَذَيْنِ الْجَيْشَيْنِ الَّذِينَ لَا قِبَلَ لَهُ بِهِمَا .

ولقد أرسل «عمر بن سعد» إلى «الحسين» حين قدم عليه
بجيشه يسأله ما الذى جاء به .

وكان «عمر بن سعد» لم يكن يعرف فيم خرج «الحسين» ،
وإلى أى شيء ، ولكنها لغة القواد يحبون أن يندروا قبل أن
يندروا .

أو لعل «عمر بن سعد» أراد هو الآخر أن يضمن العافية ، كما
أراد أن يضمنها «الحر بن يزيد» ؛ من أجل ذلك بعث إلى «الحسين»
يسأله ، وقد يجيب «الحسين» بما يجد هو فيه مخرجا من ذلك
الضيق .

وكان «الحسين» صريحا فيما أجاب به «عمر بن سعد» ، لا يلتفت
إلى حقه ، ولكنه يلتفت إلى شيء أقل من ذلك ، فيقول له :
«كتب إلى أهل مصركم هذا أن أقدم عليهم ، فأما إذ ذكرهونى فإنى
أنصرف عنهم .»

وهكذا أعطى «الحسين» «عمر بن سعد» سببا يستطيع هو أن
يتعلق به ، إن صح منه العزم على أن يمد إلى «الحسين» يدا .
ولكن «عمر بن سعد» لم يكن يملك الأمر كله فيقضى

في أمر « الحسين » بما يرى ولكنه كان يملك أن يميل « الحسين »
حتى يكتب إلى « ابن زياد » .
وهكذا كتب « عمر بن سعد » إلى « ابن زياد » يخبره بما كان
من « الحسين » .

. . .

ولئن كان « الحارث بن يزيد » ممن يرجون العافية ويَطْمَعُونَ
فيها ، ولئن كان « عمر بن سعد » ممن أرادوا العافية وطمعوا
فيها ؛ فلم يكن « ابن زياد » ممن لا يميل إلى العافية ولا يطمع فيها ،
ولكنه كان أشبه شيء بالذئب المفترس الجائع لا يثنيه
استسلام الفريسة بين يديه عن أن يُنْشِبَ فيها أظافره ، فما
كاد « ابن زياد » يقرأ ما كتب إليه « عمر بن سعد » حتى تمثل
بقول القائل :

الآن إذ علقت مخالبنا به يرجو النجاة ولات حين مناص
ثم كتب إلى « عمر بن سعد » يأمره أن يعرض على الحسين
بيعة « يزيد » .

وما وقف « ابن زياد » عند هذه يجتزئ بها من « الحسين » ،

ولكنه جعل أمر « الحسين ، بعدها — إن فعل — إليه يأمر فيه بأمره .

ثم خاف « ابن زياد ، أن يفتر « عمر بن سعد ، عن حصار « الحسين ، وهو يُفأوضه ، فأمره أن يَبقى على حصاره ، وأن يَبقى على مَنعه الماء ، لا يجعله يدنو منه ، ولا يدنو منه أحد من أصحابه .

ولئن كان « عمر بن سعد ، قد استقبل أمره مع « الحسين ، وهو يريد العافية ، قلقد أُستدبره وقد أنسى تلك العافية .

فما إن وصل كتاب « ابن زياد ، ، إليه حتى أرسل خمسمائة فارس يحيطون بالماء ، إمعاناً منه في الحيلة ، وإسرافاً منه في الإيذاء . وإذا هذا الإمعان وذلك الإسراف من « عمر ، ، ينتقلان إلى رجال « عمر ، ، وإذا واحد منهم يتطأع إلى « الحسين ، وهو يقول : يا « حسين ، أما تنظر إلى الماء كأنه كبَد السماء ، والله لا تذوق منه قطرة حتى تموت عطشا .

وهكذا أنسى الحسين الأمر الذى خرج له ، وعاد يذكر هذا الأمر الذى بين يديه ، لقد خرج ينازع على ملك ، وأصبح اليوم ينازع على حياة ، ولقد جهد به أصدقاؤه أن يبقى فى المدينة لا يغادرها فلم يجبه ، فإذا هو يجهد بأعدائه أن يرتد إلى المدينة فلم يجيبوه ، ولقد كان له من قبل — غير أهله — أنصاره منهم المخلص لدعوته الإخلاص كله — وكانوا قلة — ومنهم المخلص لها شيئا من الإخلاص — وكانوا كثرة — ومنهم المسوق لغنم أو نفع — وكانوا بين هؤلاء وهؤلاء — فإذا هو قد فقد هؤلاء جميعا وكاد يفقد معهم بعض أهله .

وما انتهى حديث « عمر بن سعد بن أبى وقاص » مع الحسين ؛ وإن كان قد انتهى بينه وبين نفسه ، فلقـد نظر عمر بن سعد إلى دنياء مغرية فآثرها على أخراه — كما مربك — وانتهى على أن يخرج إلى الحسين على رأس جيشه ، فأنهى بهذا الرأى الذى رآه

ما بينه وبين نفسه من أخذ ورد . ومضى يقضى في أمره مع الحسين في ضوء ما قضى مع نفسه .

فلقد بعث الحسين إلى « عمر بن سعد » ذات ليلة يطالب منه أن يلقاه بين العسكر لا في هذا العسكر ولا في ذاك ، ولقد خرج إليه « عمر » فالتقيا وتحادثا طويلا ، ثم عاد « الحسين » إلى عسكره كما عاد عمر إلى عسكره ، فأفضى الحسين إلى من حوله ا كان ، وأفضى « عمر » إلى من حوله بما كان ، فإذا المتحدثون من هنا ومن هناك يلتقون على خبر واحد في معناه ، وإن اختلف شيئا في مبناه .

وإذا هذا الخبر الواحد يرويه الرواة فيقولون : إن الحسين قال لـ « عمر بن سعد » : اخرج معي إلى يزيد بن معاوية وندع العسكر بن .

فيقول له عمر بن سعد : أخشى أن تهدم دارى .

فيقول له الحسين : أبني لك خيرا منها .

فيقول عمر بن سعد : تؤخذ ضياعى .

فيقول الحسين : أعطيك خيرا منها من مالى بالحجاز .

وكان وراء ذلك -- غير الدار والضياع -- عز الولاية وجاه
الإمرة ، يطمع فيها «عمر بن سعد» ويبيعها لنفسه ، لم يذكرهما
للحسين ، لأن الحسين كان على حاله تلك أعجز من أن يعد بمثلهما ،
وهو إن ملك أن يعوض «عمر بن سعد» عن داره وضياعه ، فما
بملكه أن يعوضه ولاية وإمرة .

لهذا سكوت عمر فلم يقل للحسين شيئا ، ولهذا انصرف
«عمر بن سعد» عن «الحسين» ولم يجبه إلى ما طلب .

والرواة الذين قالوا هذه قالوا أخرى ، فلقد قالوا : إن الحسين
قال لعمر : اختاروا منى واحدة من ثلاث : إما أن أرجع إلى
المكان الذي أقبلت منه ، وإما أن أضع يدي في يد يزيد بن معاوية
فأبى فسيما بيني وبينه رأيه ، وإما أن تسيروا بي إلى أى ثغر
من ثغور المسلمين شئتم ، فأكون رجلا من أهل لي ما لهم وعلى
ما عليهم .

ولكن الرواة الذين رويوا هذا وذاك يقولون : إن الحسين

لم يطلب أن يضع يده في يد يزيد ، ولا أن يسير^١وه إلى ثغر من ثغور المسلمين ، ولكنه قال : دعوني أرجع إلى المكان الذي أقبلت منه ، أو دعوني أذهب في هذه الأرض العريضة حتى ننظر إلى ما يصير إليه أمر الناس .

ولكني أرى أن هذه الروايات كلها تلتقى على معنى واحد ، وإن أراد المشفقون على «الحسين» ألا يصدر عنه ما يلزمه في كبريائه .

وكأنى بهؤلاء المشفقين أرادوا أن يخلص لهم كلام «الحسين» على الوجه الذي صوروه ليمضوا بعده في دعوتهم يكسبون من إجابته البيعة على «يزيد» ، وأنه مضى — رحمة الله عليه — وهو لها رافض ؛ — ما يعطيهم الحق بعده في أن يمضوا هم على الدعوة ويهيئوا لها ، وفرق بين أن يستقبل الدعاة الناس وفي أيديهم هذه الحججة ، وبين أن يستقبلوهم وهم لا يملكون هذه الحججة .

وما أريد أن أقول إن الحسين قال هذا ولم يقل ذلك ، ولكني أكاد أفهم أن «الحسين» حين طلب إلى «عمر» أن يذهبها معاً إلى يزيد ،

لم يطلب ذاك إلا وهو يريد أن يبايع ، ولقد أراد أن يعطى هذه البيعة ليزيد ، ولم يرد أن يعطيها على يدى « عبيد الله بن زياد » وهو مقهور ، ولقد رأى إن هو لقي « يزيد » فقد لقي ندا وملكاً ، وإن هو لقي « ابن زياد » فقد لقي عدواً مسفهاً فى عداوته يريد أن يذله .

وأكد أفهم أن « الحسين » حين طلب إلى « عمر » أن يحل بلداً من بلاد الله لم يكن يغيب عليه أنه لن يكون له الخيار فى النزول بأى بلد يشاء له فيها أنصار يعود بهم بعد قليل لحرب يزيد ، ولكنه كان يدرك أن اختيار هذا البلد لهم لا له .

وأكد أفهم أن « الحسين » حين طلب إلى « عمر بن سعد » أنه سيكون رجلاً من الناس ، له ما لهم وعليه ما عليهم ، كان يملئ عن روية بعد ما فاته أمر الناس وبعد أن بلاهم فلم يجد عندهم خيراً ، وكان يملئ عن رغبة خالصة فى السلم لا يريد أن يجعل لعدوه عليه حقاً .

ولو أنه جعل بقاءه فى هذا البلد الذى سيحمله هذا الذى روه عنه ، من أنه سيبقى فيه حتى ينظر ما يصير إليه أمر الناس ، لكان

شيئا ينقض عليه رغبته في السلم ، ويعطى لعدوه عليه حقا في ألا يعطى .

ولكنه - كما قلت - لم يعد هذا الذى أرادته الشيعة والأنصار ليضوا في دعوتهم معتمدين على أن « الحسين » مضى ولم ينزل عن شيء ، وأنه قد ترك لهم الأمانة ليحملوها عنه ، بعد أن لم تسعفه الأحوال على تحقيقها .

❦ ❦ ❦

غير أن الرواة يلتقون مرة ثانية على هذا الخبر الذى خرج عليه بعضهم ، ويقولون : إن « عمر بن سعد » حين لم يجب « الحسين » إلى ما طلب حرصا على دينه كتب إلى ابن زياد يقول : « أما بعد . فإن الله أطفأ النائرة وجمع الكلمة . وقد أعطاني الحسين أن يرجع إلى المكان الذى أقبل منه ، أو أن يسيره إلى أى ثغر ، أو أن يأتى يزيد أمير المؤمنين فيضع يده فى يده ، وفى هذا لكم رضى وللأمة صلاح .

فلقد ذكر « عمر » أن الذى ولّاه « ابن زياد » ، ولقد ذكر « عمر » أن « ابن زياد » أقرب منه إلى « يزيد » ، ولقد ذكر « عمر » أنه إن عدا

« ابن زياد » إلى « يزيد » ولم يرجع إليه ، فليس آمنا أنه سوف يغضب
« ابن زياد » ولا يرضى يزيد على حين أنه إن وصل حبله به « ابن زياد »
فهو ضامن رضى « ابن زياد » و « يزيد » ، ثم هو ضامن بعدها
تلك الولاية التي لوح له بها ابن زياد .
لهذا كتب عمر إلى ابن زياد ، ولم يستجب للحسين فيصحبه
إلى يزيد .

ولقد كاد « ابن زياد » يجيب « عمر بن سعد » إلى ما عرض : ولقد
رآه ابن زياد نصرا حاسما له أولا ولزيد ثانيا .
ولكنه قد فاته أنه إن هو أجاب فقد أعطى الحسين شيئا أراد ،
فيه امتحان له وفيه إنصاف للحسين .

ولقد كان ابن زياد لطفا للنصر ، فلم ينظر للأمر بعقله كله ،
وكان إلى جنبه رجل هو -- شمر بن ذى الجوشن -- لم تغمره
نشوة الفرح كما غمرت ابن زياد ، فینسى بها عقله وتديره فالتفت
إلى ابن زياد وهو يقول له : أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك
وإلى جنبك ، فلا تعطه هذه المنزلة فإنها من الوهن . ولكن لينزل
على حكمك هو وأصحابه فإن عاقبت كنت ولى العقوبة ، وإن

عفوت كان ذلك لك .

وهكذا ردّ ابن ذى الجوشن ، ابن زياد إلى كل عقله .
وتمام تدبيره ، فلقد أراد الحسين — كما مر بك — أن
يفوت على ابن زياد تشفيه فيه ، وأن يفوت عليه أن يكون
حسم النزاع على يديه ، فيخرج من الأمر بنصف نخره ، أو دون
هذا بكثير . وما يكاد ابن زياد يسمع من ابن ذى الجوشن قوله حتى
يقول له : نَعَمْ ما رأيت . اخرج بهذا الكتاب إلى عمر بن سعد
فليعرض على الحسين وأصحابه النزول على حكمي ، فإن فعلوا فليبعث
بهم إلى سلما ، وإن أبوا فليقتلهم .

ثم يحتاط ابن زياد ، لأمره ؛ فلقد داخله من عمر بن سعد
شيء ، فيقول لابن ذى الجوشن ، وإن فعل « عمر » فاسمع له وأطع ،
وإن أبى فأنت الأمير عليه وعلى الناس واضرب عنقه وابعث إلى
رأسه .

لقد كاد ابن زياد أن ينسى قسوته الفطرية بهذا الظفر
الذى لاح له في الأفق فبدأ يلين شيئا ، ولقد عاد ابن زياد إلى
قسوته كلها لم ينس منها شيئا حين قرت في أذنه كلمة ابن ذى

الجوشن ، وهى لا تعنى المؤمنين الذين يعملون لأخراهم شيئا ،
ولكن تعنى فى قلوب القساة الذين يعملون لديناهم كل شئ .

من أجل ذلك ركب ابن زياد الطريق إلى دنياه ولم يركب
الطريق إلى أخراه ، ومن أجل ذلك تنكر ابن زياد لمن يشيرون
عليه فى أخراه واستمع إلى من يشيرون عليه فى دنياه ، ومن أجل
ذلك نسى « ابن زياد » « عمر بن سعد » وما بلغه من حسم للنزاع ،
وذكر « ابن ذى الجوشن وهو يدفعه إلى مالا تحمد عقباه ،
ومن أجل ذلك أصبح « عمر بن سعد » لدى « ابن زياد » متبها ،
وأصبح « ابن ذى الجوشن » ناصحا ، ومن أجل ذلك كان جزاء
« عمر بن سعد » أن يقطع رأسه ، وكان جزاء « ابن ذى الجوشن »
أن يكون له الأمر .



ولقد كان كتاب « ابن زياد » الذى حملة « ابن ذى الجوشن » ،
إلى « عمر بن سعد » ينبئك بهذا كله ، فاقرأه معى لتعلم مبلغ الحقد
من نفس « ابن زياد » فلقد كتب إليه يقول : « إني لم أبعثك إلى الحسين
لتكف عنه ، ولا لتمنيه ، ولا لتطاوله ، ولا لتقعد له عندى شافعا .

انظر فإن نزل « الحسين » وأصحابه على الحكم واستسلموا فأبعث بهم إلى سلا ، وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم فإنهم لذلك مستحقون . فإن قتل « الحسين » فأوطىء الخيل صدره وظهره فإنه عاق شاق ، قاطع ظلام ، فإن أنت هضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع ، وإن أنت أبيت فاعتزل جندنا واخل بين « شمر » وبين العسكر .



ولقد كان « ابن زياد » في كتابه هذا غنيفاً بـ « عمر بن سعد » رابه ، فلقد جمع في كتابه هذا إلى عنقه به مكره له ، فهو يعلم حُب « عمر » لدنياه ، فشفع عنقه بمكره ، وهو يؤمن أن « عمر » مغلوب على أمره بحبه لدنياه وأنه لا شك أخذ بما يريد منه ، ناس ما يريد هو ، ليضمن ما عند « ابن زياد » وما يعنيه أن يخسر ما عند الله .

ولكن « عمر بن سعد » كان موصولاً يحب العافية بسبب ، وكان موصولاً يحب الدنيا بأسباب ، ومضى حبه للدنيا يرخى يديه على هذا السبب ويشد يديه على تلك الأسباب .

لهذا التفت إلى « ابن ذى الجوشن » شبه مغضب يقول له :
أفسدت علينا أمرا كنا رجونا أن يصلح والله ، فإن يستسلم
« الحسين » أبدا ، والله إن نفس أبيه لبين جنبيه .

ولكنه - بين يلتفت إليه « ابن ذى الجوشن » يقول له :
وما أنت صانع .

فيحس « عمر » أن « ابن ذى الجوشن » يهدده بالذى يقول .
هنا يذكر دنياه .

فيقول له : سأتولى ذلك .

وهو يعنى أنه ماض كما قال « ابن زياد » .

ويركب «عمر بن سعد» والناس معه فيشرفون على «الحسين»
وهو جالس أمام خيمته وقد احتجب بسيفه و غلبه النعاس فأطرق
برأسه .

وتسمع أخته زينب عجيح الجند وصهيل الخيل وهي مقبلة
فتسرع إلى أخيها «الحسين» فتوقظه وترفع رأسه .

وما تكاد عيناه تقعان عليها بعد أن أفاق - لا تغنيه هذه الخيل
ومن عليها، ولكن يعنيه أن يقول لها - : إني رأيت رسول الله
صلى الله عليه وسلم في المنام يقول لي : إنك تروح إلينا .

وتبكي أخته زينب وتكاد تخرج عن اطمئنانها وهي تقول :
يا ويلتاه .

فيلتفت إليها «الحسين» واجماً، ولكنه غير هيَّاب ولا وجل
فيقول لها : ليس لك الويل يا أختي ، اسكتي رحمك الله .

ويلتفت إليه أخوه «العباس» ينهضه وهو يقول له : أناك القوم
يا أخى .

وينهض «الحسين» لاليشيرها حربا؛ فلقد علم «الحسين» أنه لا قبل
لله بالقوم، ولا ليلقي حربا فيما نظن، فلقد أعطى ما يدفع الحرب
عن الناس ويرد الأمر أمنا بينهم.

لهذا هم «الحسين» أن يخلص إلى القوم يسألهم عن أمرهم فلم
يكن يخشاهم بعد الذي أعطاهم.

ولكن أخاه «العباس» لا يدعه يخرج إليهم إذ هي فتنة والفتنة
من صفاتها. فركب هو إلى القوم ليعرف ما عندهم، - يجعل حيانه بين
حياة أخيه -.

ويلقى «العباس» القوم فيقول لهم: مالكم؟ وما بدا لكم؟

ويرتد «العباس» لينبئ أخاه «الحسين» بما جد وبما يطلب «بن
زياد» وبما أرسل به رسوله «ابن ذى الجوشن» إلى «عمر بن سعد»
وبما كان من «عمر بن سعد».

ويعود «العباس» إلى القوم ثانية يحمل إليهم جواب أخيه
«الحسين» يستمعهم إلى غد ليقضى فيما طلبوه منه برأى، إما أن يرضاه
وإما أن يرده.

ولقد كاد «عمر بن سعد» أن يجيب «العباس» إلى ما طلب: ولكنه
كان يعلم أن إلى جنبه «ابن ذى الجوشن» وكان يعلم أن رأى رأى
«ابن ذى الجوشن» لا رايه، وكان يعلم أنه إن قضى بما يرى لا بما
يراه «ابن ذى الجوشن» فقد ولت عنه دنياه العريضة التى طمع فيها،
وربما ولت قبلها حياته العزيزة التى يحرص عليها .

لهذا التفت «عمر بن سعد» إلى «شمر بن ذى الجوشن» وهو
يقول له : ماترى يا شمر .

و«شمر» ماكر هو الآخر، يريد أن يرخى لـ «عمر» حتى يتورط
ورطة لا يقبله هو بعدها ، ويكون له العذر عليه . فقال له : أنت
الأمير فأقبل على الناس .

ويقبل عمر على الناس وفيهم من يرحم للضعيف ضعفه، وفيهم
من يزيده ضعف الضعيف قسوة به .

فاستمع «عمر بن سعد» لـ «عمر بن الحجاج الزبيدى» وهو يشير
ويقول :

« سبحان الله ، والله لو كان «الحسين» من الديلم ثم سألكم هذه
السألة لكان ينبغي أن تجيبوه . »

واستمع «عمر بن سعد» «لقيس بن الأشعث» وهو يشير
ويقول متكئا : أجبهم، لعمرى ليصحبك بالقتال غدوة .

* * *

لكن «عمر بن سعد» قد وجد في القوم من يعينه على نفسه
الطامعة ، كما وجد فيهم من يعين نفسه الطامعة عليه ، ولم يجد الناس في
جانب واحد ولكنه وجدهم على رأيين ، ولقد رأى نفسه وليس
لابن ذى الجوشن عليه حجة إن هو أخذ بالرأى الذى يعين على
نفسه الطامعة ، فالتفت الى «قيس بن الأشعث» يقول له : لو أعلم
أنهم يفعلون ما آخرتهم العشية .

ثم رجع عن «الحسين» ليلقاه الغداة للقاء الأخير ، إما على
الاستجابة فسلم مهين ، وإما على الرفض فحرب لا تعرف اللين ، كما
أشار «ابن زياد» ، وكما سيشهد تفاصيلها «ابن ذى الجوشن» .

نظر الحسين في أمره كله فتدبره فإذا هو ضعيف لا حول له، وإذا هو رحيم بمن معه لا يريد أن يحملهم على الشطط، وإذا هو ينظر لخلاصهم قبل أن ينظر لخلاص نفسه .

لهذا جمع « الحسين » إليه أصحابه بعد أن رجع عنه « عمر بن سعد » يقول لهم : أثنى على الله أحسن الثناء وأحمدته على السراء والضراء، اللهم إني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة وجعلت لنا أسماعا وأبصارا وأفئدة . وعلمتنا القرآن، ووقمتنا في الدين، فاجعلنا لك من الشاكرين .

أما بعد فإني لا أعلم أصحابا أوفى ولا أخير من أصحابي، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله جميعا عنى خيرا .

ألا وإني لأنظر إلى يومنا من هؤلاء الأعداء غدا، وإني قد أذنت لكم جميعا فانطلقوا في حل ليس عليكم منى ذمام . هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملا . وليأخذ كل رجل منكم

بيد رجل من أهل بيتي فجزاكم الله جميعا خيرا ، ثم تفرقوا
في البلاد؛ في سوادكم ومدائنكم حتى يأتي فرج الله، فإن القوم يطلبونني
وإن أصابوني شغلوا عن طلب غيري .

فيلتفت لإخوته وأبناءؤه وأبناء إخوته إليه يقولون : ولم نفعل
هذا ؟ ألتبى بعدك ؟ لا أرانا الله ذلك أبدا .

ويلتفت إليهم « الحسين » يقول لهم : حسبكم من القتل
« مسلم بن عقيل » ، ذهبوا فقد أذنت لكم .

فيقولون له : وما نقول للناس ، نقول تركنا شيخنا وسيدنا
ولم نرم معه يسهم ، ولم نطعن معه برمح ، ولم نضرب بسيف ،
ولا ندرى ما صنع ، لا والله لا نفعل وليكننا نفديك بأنفسنا ونقاتل
معك حتى نرد موردك ، فقبج الله العيش بعدك .

ويقوم إليه « مسلم بن عوسجة الأسدي » فيقول له : نحن
نتخطى عنك ولم نعذر إلى الله في أداء حقتك ، أما والله لا أفارقك
حتى أكسر في صدورهم رمحي وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه يدي .
والله لو لم يكن معي سلاحي لقد قتهم بالحجارة دونك حتى
أموت معك .

وكما تكلم أهل «الحسين»، وتكلم «مسلم بن عجميجة»، تكلم غيرهم فقالوا مثل كلامهم .

* * *

وهكذا أراد «الحسين»، أن يخرج منها آخر الأمر لا عليه ولا له، فأبأها عليه «ابن زياد»، بخطته تلك التي اختطها إمعانا في إذلاله، وأبأها عليه قومه بهذا الذي قالوه له لم يرضوا أن تستندهم الحياة، ولا أن يستندهم الناس، ولا أن يستندهم الخلق الوضيع، وهم سادة الدنيا وسادة الناس وسادة الخلق .

وهكذا لم يجد «الحسين»، بدا من أن يخوض بهم الحرب، التي كرهها أخيرا له ولهم، بعد أن كان يحبها له ولهم . ولقد كان «الحسين»، حين أحب الحرب يملك عنده الأغر البين، كما كان حين كرهها يملك عنده الأغر البين .

* * *

وما درى «ابن زياد»، أنه لو أجاب «الحسين»، إلى ما طلب لأعفى نفسه من إثم وأعفى الأمويين من شر. وأكاد أميل إلى أنه لو فعل كان مسلماً دعوة «الحسين»، إلى هداة وفتور وممكنا للأمويين

يبندهم واغرائهم أن يزيدوا في تلك الهداة وذلك الفتور .
ولكن « ابن زياد ، أبى إلا أن يمضى آثما ، وأبى إلا أن يعنى
الأمويين بما أثم هوفيه ، وأبى إلا أن يثير يائمه النفوس ، وأبى إلا
أن يوقظ الشيعة على أعنف مما استيقظوا له أولا ، وأبى إلا أن
يجمع يائمه إلى الشيعة غيرهم ممن عز عليهم أن يمضى « الحسين ،
مقتولا مثله .

وما أن أصبح « الحسين » حتى عبا أصحابه . ولئن سألتني كم كانوا ؟ لأجبتك أنهم لم يكونوا غير اثنين وثلاثين فارسا وغير أربعين راجلا .

هكذا كان رجال « الحسين » أمام ألف سبق بهم « الحارث بن يزيد » وأمام أربعة آلاف انضموا إليهم وعليهم « عمر بن سعد » ولقد أخذ « الحسين » ينظم من جيشه هذا الصغير بعدده ؛ — الكثير بقلوبه ، فجعل منه ميمنة وميسرة ، وجعل على ميمنته رجلا ، وجعل على ميسرته رجلا ، وأعطى أخاه « العباس » رايته ، وجعل البيوت من وراء ظهره ، وأمر بحطب وقصب فألقى في مكان منخفض من ورائه وأضرم فيه نارا اثلا يوتوا من ظهورهم .

ولكن « الحسين » على ذلك كان مؤمنا بحتفه ، وكان أصحابه على ذلك مؤمنين بحتفهم ؛ ولكنه استشهد في سبيل الحق فلم يخشوه .

واستشهاد في سبيل العزة فلم ينكروا عنه ، واستشهاد في سبيل الخلق فمشوا له ولم يعبسوا .

فقد رروا أن « الحسين » وهو يطالع القوم دعا بطيب فتطيب ، ففعل من يستعد للموت ، لا من يستعد للحرب ، فإذا أصحابه بين يديه يتسابقون إلى ما تطيب به أنفاسهم منه شيء ، وإذا لسان حالهم يقول : والله ما بيننا وبين الحور العين إلا أن يمسح هؤلاء علينا بأسيا فهم .

* * *

غير أن « الحسين » — على هذا كله — كان يجب أن يعذر إلى عدوه ، فوقف إليهم يقول :

« أيها الناس اسمعوا قولي ولا تعجلوني حتى أعظاكم بما يجب لكم على ، وحتى أعذر لكم من مقدمي عليكم ، فإن قبلتم عذري وصدقتم قولي وأنصفتموني ؛ كنتم بذلك أسعد ، ولم يكن لكم على سبيل .

ثم دنا منهم يقول :

أما بعد : فانسبوني فانظروا من أنا ثم راجعوا أنفسكم فعاتبوا ،

وانظروا هل يحل لكم قتلى وانتهاك حرمتي ؟ ... ألسنت ابن بنت نبيكم ، وابن وصيه ، وابن عمه ، وأول المؤمنين بالله والمصدق الرسول الله ؟ ؟ ...

أوليس حمزة سيد الشهداء عم أبي ؟ ... أوليس جعفر الشهيد الطيار في الجنة عمي .

أما في هذا حاجز يحجزكم عن سفك دمي ؟ ؟ .

وأحس « الحسين » من القوم ما يطمعه فيهم شيئا فازداد منهم قربا وهو يقول : فإن كنتم في شك مما أقول أو تشكون في أبي ابن بنت نبيكم ؛ فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري منكم ولا من غيركم .

اخبروني أطلبوني بقتيل منكم قتلته ، أو بمال لكم استهلكته ، أو قصاص من جراحة ؟ ؟ ...

فسكت القوم لا يجيبون فدنا منهم شيئا وهو ينادى : يا « شبيب ابن ربيع » و « يا حجار بن أبجر » و « يا قيس بن الأشعث » و « يا « زيد بن الحارث » ألم تكتبوا إلي في القدوم عليكم . فيقولون كلهم معا : لم نفعل .

هنا يرتد « الحسين » جزعاً وهو يقول : « بلى والله لقد فعلتم » .
وما كذب « الحسين » ولكن كذب هؤلاء ، فلقد قالوها له
والدنيا في ظنهم مواتية له « الحسين » وهم كاسبون . ولقد كذبوه فيها
والدنيا منصرفه عنه إلى « ابن زياد » وهم لعقابه كارهون وفي
مخنمه طامعون .

* * *

ويلتفت إليهم « الحسين » حزينا آسيا وهو يقول :
أيها الناس . إذ كرهتموني فدعوني أنصرف إلى مأمني
من الأرض .

٢٨

وأذا أحد هؤلاء الذين ناداهم «الحسين» بأسمائهم يشهدهم على أنفسهم، ويشهدهم على ما قالوا، يقول للحسين :
 أولا تنزل على حكم ابن عمك - وهو يعني «عبيد الله بن زياد» -
 فإنك لن ترى ألا ماتحب ؟

وما أسى «الحسين» لهذه كما أسى لإنكارهم ، فهم حين أنكروا
 أنهم كتبوا إليه . قد أنكروا عليه ما يطلب من حق ، لهذا لم يلتفت
 «الحسين» إلى «قيس» التفاتة الداعى لنصير من أنصاره ، كما كان من
 قبل ، وإنما أجابه بما يجيب العدو عدوه ، ينذره المغبة ، ويهدده بسوء
 العاقبة ، فقال له :

«أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم «مسلم بن عقيل»
 لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل ، ولا أقر إقرار العبد .
 ثم أناخ راحلته ونزل عنها وهو يقول : إني عذت بربى وربكم
 أن ترجمون ، أعوذ بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن
 بيوم الحساب .

وهكذا انتهى ما بين « الحسين » وبين القوم من كلام ، ولم يعد بينه وبينهم إلا شيء آخر ، استعد له « الحسين » فنزل عن راحلته ، واستعد له هؤلاء النفر من حوله فتجمعوا حوله في سلاحهم .

ولقد كانوا قلة لا يغنون عن أنفسهم ولا عن « الحسين » شيئاً ، ولكنهم كانوا أباة لن تمنعهم قتلهم أن يكونوا شيئاً ، وكانوا مع إياهم ذوى فطن تقدر الأمور ، وذوى ألباب لا تحب أن تخالف عن أمر الله : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » .

برز من رجال « الحسين » « زهير بن القين » على فرسه وفي سلاحه ، لم يشأ أن يضعه عنه فيظن به وبأصحابه الخور ، ولم يشأ أن يدعو إلى قتال فيظن به الثور ، ولكنه وقف من أمامه من أهل الكوفة لينذرهم عذاب الله على ما اختانوا ، ويخوفهم غدر ابن زياد ، بعد حين ، ويضرب لهم الأمثال بمن قتل منهم .

ولكنه ما كاد يفرغ حتى صاحوا به يذكرونه بالسوء ويذكرون ابن زياد ، بالخير .

ولقد كان « الحسين » حين خطب القوم يبغى أن يردهم إلى

عقل ليسمعوا له ، وإلى روية ليملك مقادهم ، وإلى حجة ليضممنهم على
الرأى ولا يتركونه إلى غيره .

ولكن « زهير بن القين » خطب للقوم فردّهم إلى طيش لم يملكوا
معه العقل ، وإلى نزق نسوا به الحلم ، وإلى هييج خرجوا به عن الرأى
إلى غيره ، وإلى ما أبعد من هذا كله ثورة ، فإذا هم يقولون له :
والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه ، أو تبعث به وبأصحابه
إلى الأمير « عبيد الله بن زياد » سلما .

وحين يلين « زهير بن القين » فى قوله لهم : يا عباد الله ، إن
ولد فاطمة أحق بالود والنصر من « ابن سمية » - يعنى ابن زياد - فإن
كنتم لم تنصروهم فأعينكم بالله أن تقتلوهم . خلوا بين الرجل وبين
ابن عمه « يزيد بن معاوية » فلعمرى إن « يزيد » ليرضى من طاعتكم
بدون قتل « الحسين » .

حين يلين « زهير » هذا اللين لا يلقى من القوم لينا ، ولكنه
يلقى منهم سهما يرميه به أحدهم وهو يقول له : أسكت ، أسكت
الله نأمتك ، أبرمتنا بكثرة كلامك .

والشر لجاج وتراشق بالألفاظ ما لم ترفع فيه يد ، أو يشهر سيف ، أو ينطلق سهم ، فإذا هو عجاج تصطك معه الأسنة ، وتتشاجر السهام ، وتشابك السيوف .

كما حرك قول « زهير » النفوس فثارت ، وحرك هذا السهم النفوس فهاجت ، وتحرك القوم للقوم ، وما تحرك قوم « الحسين » ، ولكن تحرك قوم الكوفة ، فلقد هاجت نفوس الحسينيين فتحركت ألسنتهم بالفرع إلى الله ، وثار نفوس الكوفيين ، فامتدت أيديهم إلى السيوف ، وإذا هم يزحفون ، وإذا على رأسهم « عمر بن سعد » هذا الذي بدأ يذكر العافية ويكاد يؤثرها ، ثم انتهى يؤثر الدنيا ولا يكاد ينساها .

ويفرع « الحر بن يزيد » لما رأى من عزم « عمر » وكان « الحر » قد بدأ كما بدأ « عمر بن سعد » يحب العافية ويرغب فيها ، وحين أوشكت دنياه تغلبه على عافيته فزع يعمل للعافية ، ولا يستجيب للدنيا .

وإذا هو ملتفت إلى « عمر بن سعد » ، يقول له : أصلحك الله ، أمقاتل أنت هذا الرجل ؟ ... فيقول له « عمر بن سعد » إى : والله

قتالا أيسره أن يسقط الرموس ويطيح الأيدي .
 فيقول له « الحر » : أفما لكم في واحدة من الخصال التي
 عرض عليكم رضا .
 فيقول « عمر بن سعد » : والله لو كان الأمر إلى لفعلت ،
 ولكن أميرك قد أبى ذلك .

وكانى بـ « عمر بن سعد » قد نسى أن يزيد فيقول : ومن يضمن لى
 الولاية على الرى .

هذه الولاية التى أنسته أن يستجيب للحسين فيأخذ بيده إلى
 « يزيد » فيضع لتلك الفتن حدا ينصف « الحسين » وينصف
 « يزيد » ، وما من شك فى أنها كانت ستمضى سلبا . يخرج منها
 « الحسين » ناجيا بحياته وإن لم ينبج بماخرج يطلبه ، ويخرج منها أهل
 « الحسين » وغير أهل « الحسين » بحياتهم ، وإن لم يخرجوا منها
 بما ارتقبوا من مغم .

ولكن قاتل الله الدنيا : كم تعمى وكم تصم ؟ اوقاتل الله الشهوات ،
 كم تغلب على العقل والرأى ؟ اوقاتل الله الطمع ، كم ينسى به الطامع

« لا نفس غير نفسه .

وما يكاد « الحر » يسمع « عمر بن سعد » ويعرف ما اتوا به ،
حتى يردد في نفسه : إني والله أخير نفسي بين الجنة والنار ، ولا
أختار على الجنة شيئا ؛ ولو قطعت وحرقت .

وإذا هذا الذي تردد في نفسه يتحرك به لسانه ، ويسمعه عنه
المحيطون به وقد أفصح ، وما دام قد أفصح فقد مَلَكَ الشجاعة
على أن يفعل ، وقد ملك أن يميل إلى العافية وأن يميل عن الدنيا .
وهكذا ترك « الحر » ، « عمر بن سعد » ، إلى « الحسين » .
ولم يشأ أن يأثم بحربه ، وإذا هو بين يدي « الحسين » ، يلقي معاذيره
ويقول له :

« جعلني الله فداك يا بن رسول الله ، أنا صاحبك الذي حبستك
عن الرجوع ، وسأيرتك في الطريق ، وجعجت بك في هذا
المكان ، والله الذي لا إله إلا هو ، ما ظننت أن القوم يردون
عليك ما عرضت عليهم أبدا ، ولا يبالغون منك هذه المنزلة
أبدا ... وإني قد جئتكم تائبا بما كان مني إلى ربي ، مواسيا لك

بنفسى حتى أموت بين يديك ؛ أفترى ذلك توبة ؟ .
فيقول له « الحسين » : نعم ... يتوب الله عليك ويغفر لك ..

✽ ✽ ✽

ولكن « الحر بن يزيد » ، على ذلك ؛ كان يرى أن الأمر أهون
من أن يشعل حربا ، لو حفظ الناس على « الحسين » كرامته
وإباهه ، وقبأوا منه ما عرض .

وكان « الحر » يطمع في أن يؤثر القوم العافية إيثاره ، يطمع
في ذلك من « عمر بن سعد » ، أولا ، ثم يطمع في ذلك من أهل
الكوفة ثانيا .

وقد خبر « الحر » ، « عمر بن سعد » ، حينما ، فوجده ممسكا
بجباين ، أحدهما لدينه ، والآخر لديناه ، يشد على الذى لديناه يده ،
ويرخى عن الذى لدينه يده الأخرى ، ولكنه على ذلك لا يفلاته ،
فطمع « الحر » ، فى أن يرد « عمر » ، أحرص على دينه من ديناه ،
فاتجه إليه وإلى القوم يقول :

أيها القوم : « ألا تقبلون من « الحسين » ، خصلة من هذه
الخصال التى عرض عليكم فيعافىكم الله من حربه وقتاله ؟

ولكن « الحر » قد نسي أن إلى جانب « عمر » رجلا آخر — هو : « شمر بن ذى الجوشن » — كان عليه وزر هذه الحرب كله ، وكان عينا له « ابن زياد » على « عمر » أو كان حريصا على أن يتراخى « عمر » فيضرب عنقه ويمضى هو بفخرها .

وقد نسي « الحر » أن « عمر بن سعد » كان ضئينا بدنياه ، قد جعل من وجود « شمر » إلى جواره عذرا له وسببا .

ولكن « الحر » إلى هذا كله كان طامعا في هذا السبب الواهى الذى أحس شيئا منه فى نفس « عمر » وهو رغبته فى العافية .

ولقد كان « عمر » كما هو ، رجل دنيا لا رجل دين ، لم يخش ظن الذين عرفوه فيه ، وإن كان قد خشي ظن « الحر » ، حين التفت إليه يقول : لقد حرصت لو وجدت إلى ذلك سبيلا .

ولكن « الحر » الذى يئس من « عمر » لم يئأس من أهل الكوفة ، وإن لهم بـ « الحسين » لأسبابا قد يصاوها لو نهوا إليها ، فالتفت إليهم بعد ما التفت عن « عمر » يقول لهم :

يا أهل الكوفة . أدعوتموه حتى إذا أتاكم أسلمتموه ، وزعمتم

أنكم قاتلو أنفسكم دونه ثم عدوتم عليه لتقتلوه ؟
 أمسكنم أنفسه ، وأحطتم به ، ومنعتموه من التوجه في بلاد
 الله العريضة ، حتى يأمن ويأمن أهل بيته ، فأصبح كالأسير
 لا يملك لنفسه نفعا ولا يدفع عنها ضرا .
 ومنعتموه ومن معه ماء الفرات الجاري تتمرغ فيه خنازير
 الوادي وكلابه ، وها هو وأهله قد ضُربَ بهم العطش .
 بئسما خلفتم محمدا في ذريته ، لا سقاكم الله يوم الظما إن لم
 تتوبوا وتنزعوا عما أنتم عليه .

ولكن النفوس كانت قد استقرت على شيء ، نفوس القادة
 ونفوس الجنود ، فلم يعد هناك آذان تسمع ، ولا أفئدة تعي ،
 ولا قلوب تتدبر .

من أجل هذا لم يكن جواب « الحر » إلا النبيل
 يرمونه به ، وارتد على عقبه يقف أمام « الحسين » يكون
 له رداه .

وكانى بـ « عمر بن سعد » قد طال عليه انتظاره ، وكانى به أحس

شوقا إلى ولايته التي وعده بهاد عبيد الله بن زياد ، وكأني به قد
عجل ليفرغ من شيء إلى شيء ، وكأني به قد خلع عنه العافية جانبا
ولبس ثياب الدنيا ، فإذا هو أول داع إلى الحرب ، وإذا هو
أول رام في تلك الحرب ، وإذا هو يشهد على نفسه لتبلغ
دا بن زياد ، ، ولا يفعلها مستورة فيضيع عليه أجرها . فلقد
حكوا عنه أنه أخذ سهما فرمى به ، ثم قال : اشهدوا لي أني
أول رام .

وما كانت حربا فيها التكافؤ فيساق لها خبر وعنها حديث ؛
غير أن تلك القلة القليلة التي كانت مع « الحسين » قد استبدلت
الاستبدال كله ، ووضعوا أنفسهم دون نفس « الحسين » ،
يتخطفهم القتل واحدا بعد واحد ، لا يحزنون على أن قتلوا ،
ولم يكن يحزنهم أنهم مضوا عن « الحسين » وتركوه دون نصير ،
ولم يصير كم هذا المصير .

يُصاب « مسلم بن عويجة الأسدي » -- وكان من أنصار
« الحسين » -- إصابه قاتلة ، فيدنو منه « حبيب بن مطهر » --

وكان من أنصار « الحسين » -- يقول له : عز عليّ مصرعك .
أبشر بالجنة ، ولولا أنى أعلم أنى فى إترك لاحق بك لأحيت
أن توصينى .

* * *

فيقول له « مسلم » - رحمه الله - أوصيك بهذا -- وأوماً بيده
نحو « الحسين » -- أن تموت دونه .

تلك واحدة تدلك على كثيرات غيرها حملتها نفوس أصحاب
« الحسين » واستقبلوا بها عدوهم فاستعصوا عليه على قلائتهم ،
لا يبرز منهم واحد إلا قتل من يبرز له .

ولقد فزعوا خصمهم على كثرتهم ، فإذا هذا الخصم
يدبر أمره ويرتد مفكراً ، وكان هذا أولى بتلك القلة التى
حول « الحسين » .

فإذا « عمرو بن الحجاج » -- وهو من فرسان « عمر بن
سعد » -- يصيح بالناس وهو يقول : أندرون من تقاتلون ؟
فرسان المصر ، قوما مستميتين ، لا يبرز إليهم منكم أحد ؛
فإنهم قليل وقلما يبقون . والله لو لم ترموهم إلا

بالحجارة لقتلتموهم .

وما يكاد « عمر بن سعد » يسمعها حتى يحس الراحة ،
فيقول له : الرأي ما رأيت ، ثم منع الناس من المباشرة .

* * *

وقاتل أصحاب « الحسين » قتالا شديدا ، ولم يسكنوا
غير اثنين وثلاثين فارسا ، لا يحملون على جانب من خيل
الكوفة إلا كشفوه .

ويجمع لهم « عمر بن سعد » خمسمائة من الرماة ، يرشقونهم
بالنبيل ، وما ظنك بأثنين وثلاثين فارسا تلقاء خمسمائة رام ، فما
كاد هؤلاء الرماة يرمون حتى عقروا الخيول كلها ، وإذا هؤلاء
الفرسان على أرجلهم وقد فقدوا خيولهم .

وعلى الرغم من ذلك فقد قاتل هؤلاء الفرسان الاثنان
والثلاثون قتالا شديدا ، قاتلوا من مطلع الشمس إلى أن انتصف
النهار ، يعملون مضاربهم وراء ظهورهم ، يحتمون بها ولا يقاتلون
إلا من وجه واحد .

ويأمر « عمر بن سعد » بهذه البيوت فتحرق ، ويمضي « شمر »
حتى يدنو من بيت « الحسين » فينادي : على بالنار حتى أحرق هذا
البيت على أهله ، فيصيح به النساء ، ويصيح به « الحسين » ، ويصيح

به غير واحد ممن معه ، فينتفى بعد لآى .

• • •

وتكاثروا على « الحسين ، وأصحابه ، ورأى أصحاب
« الحسين ، أنهم غير قادرين عليهم ، وأنهم غير قادرين على أن
يمنعوا « الحسين ، ولا أن يمنعوا أنفسهم ، فالتفوا بـ « الحسين ،
يتنافسون فى أن يقتلوا بين يديه .

واشتد بـ « الحسين ، عطشه ، فدنا من الفرات ليشرب ،
فرماه أحدهم بسهم ، فوقع فى فمه ، فاختلط ما يشرب من ماء
الفرات بدمه .

ويقبل « شمر بن ذى الجوشن ، فى نفر من رجاله فيحيطون
بـ « الحسين ، ويهوى رجل منهم — أحب أن تعرفه باسمه ؛
فلقد كان « بحر بن كعب بن تيم الله بن ثعلبة — إلى « الحسين ،
بالسيف ، فيصيح به غلام من أهل « الحسين ، كان إلى جنبه : فيقول
له : أقتل عمى ؟ .

فيهوى « بحر ، بالسيف يريد الغلام ، فيثقيه الغلام بيده ،
فيقطعها « بحر ، ، ويصيح الغلام باكيا ، فيضمه إليه « الحسين .

وهو يقول له : اصبر يا بن أخى على منازل بك .
وينكشف من حول « الحسين » من أصحابه عنه من حر
الضرب ، ويبقى « الحسين » فى ثلاثة أو أربعة . و « الحسين »
يحمل على الذين عن يمينه ، ويحمل على الذين عن يساره ،
ينكشف هؤلاء عنه إذا حمل ، وينكشف هؤلاء عنه إذا حمل ،
كانهم المعزى قد شد فيها الذئب .

ولو شاء الناس أن يقتلوه لقتلوه ، ولكنهم كان يتقى بعضهم
ببعض ، ويجب هؤلاء أن يكفيهم هؤلاء .

« والحسين » بينهم ينادى : أعلى قتلى تجتمعون ؟ أما والله
لا تقتلون بعدى عبدا من عباد الله أسخط عليكم لقتله منى .
وينادى « شمر » فى الناس : ويحكم ، ماذا تنتظرون بالرجل ،
اقتلوه ثكلكم أمهاتكم .

وكما خاف « عمر بن سعد » « شمر بن ذى الجوشن » ، خافه
هؤلاء القوم ، وكان لهم فى قائدهم « عمر » أسوة ، فملوا جميعهم
على « الحسين » .

يضربه « زرعة بن شريك التيمى » ، على كفه اليسرى ،

ويضربه على عاتقه ، ثم انفرجوا عنه قليلا ، وهو يقوم ويكبو
ويحمل عليه « سنان بن أنس النخعي » وهو على حاله تلك ،
فيطعنه بالرمح فيقع على الأرض .

ويصيح « سنان بن أنس » برجل إلى جانبه هو « خولى بن يزيد
الأصبحي » ليحتز رأسه . ويحاول « خولى » أن يفعل ، فترعده يده .
فينزل « سنان » عن فرسه ، وهو يلعن « خولى بن يزيد »
ويجثم على « الحسين » يذبجه ويحتز رأسه ، ويدفع بالرأس إلى « خولى »
وإذا هم بعد هذا كله يسلبون « الحسين » ما عليه ، فيأخذ
« بحر » سراويله ، ويأخذ « قيس بن الأشعث » قطيعته ، ويأخذ
« الأسود الأزدي » نعليه ، ويأخذ رجل من دارم سيفه ، ويميل
نفر على الفرش والحلل والإبل فينتهبونها .

ألم يأمرهم أن يفعلوا هذا وغيره « ابن زياد » ؟ وهل منهم
عن أحد إلا وقد ملأ قلبه خوف « ابن زياد » ؟ وهل منهم من أحد
إلا وهو راغب فيما عند « ابن زياد » .

ولكن أين القلوب التي آذرت « الحسين » ؟ ما بالها قد فقدت
الرحمة حين ملأها الخوف والطمع ؟ وما بالها قد أنسيت أن من

قتلت « ابن بنت رسول الله » ، وما بالها قد أنسيت أن من تمثل به
رجلهم الذى التفوا به من قبل .

ولسكنك لاتنس أن الآئمين أحاد ، وأن الكثرة المشاركة كانت
مسوقة إلى حرب لم يبلغ الظن بها أن تسف إلى هذا .

فلقد كان هينا عليهم شيئا أن يمضى « الحسين » مقتولا ، وأن
ينال ما لا يحصى من الطعنات والضربات ، ولكن لم يكن هينا
عليهم أن يُقطع رأسه ، وأن يُمثل به ، وأن يُسلب ما عليه من
ثياب على هذه الصورة المحيية .

٣٠

ولكننا قبل أن نُسدل الستار على مقتل « الحسين » نحب أن نعود قليلا إلى « عمر بن سعد » الذي غلبته دنياه على قلبه . وما نحب أن نعود إليه بعدما سقنا لك ما كان إلا لنذكر له ما أعطى إلى جانب ما أخذ ، ولقد كان ما أعطاه لـ « الحسين » قليلا بجانب ما غلبه عليه ، ولو أن أمره مضى على غير هذا ، ورجح ما أعطى ما أخذ ، لخرج « الحسين » من هذه الفتنة موفور الكرامة موفور عليه حياته .

ولكن هكذا أراد الله لـ « عمر » ، وهكذا أراد الله لـ « الحسين » .

غير أن « عمر بن سعد » هذا الذي كان أول رام وقال للناس أشهدوا .

و « عمر بن سعد » هذا الذي حرق على أهل « الحسين » بيوتهم .

و « عمر بن سعد » هذا الذي صال في هذه الحرب وجال .

هو « عمر بن سعد » الذى وقف يبكى لما انكشف « الحسين » وأحاط به الناس يطعنونه ويضربونه؛ حتى بل دمه خديه ولحيته؛ وذلك حين دنت منه « زينب » تقول له: يا عمر، أيقتل أبو عبد الله وأنت تنظر إليه .

وهو أيضا « عمر بن سعد » الذى وقف للناس بعد مقتل « الحسين » وهو يدفع عن بيت « الحسين » ويقول : لا يدخلن بيت هؤلاء النسوة أحد ، ومن أخذ من متاعهن شيئا فليرده .

وهو أيضا « عمر بن سعد » الذى حذف « سنان بن أنس » قاتل « الحسين » بالقضيب حين وقف على باب فسطاطه ، وهو ينشد :

أوفو ركابي فضة وذهبا إني قتلت السيد المحتجا
قتلت خير الناس أما وأبا وخيرهم إذ ينسبون نسبنا
وهو أيضا « عمر بن سعد » الذى خلى سبيل « عقبة بن سميان » مولى « الرباب » امرأة « الحسين » وكان ثاني اثنين نجوا من تلك الحرب .

وايكنه كان أيضا بعد هذا كله «عمر بن سعد» الذي نادى
في أصحابه بعد مقتل «الحسين» : من ينتدب إلى «الحسين»
فيوطئه فرسه ، فانتدب عشرة ، فداسو «الحسين» بنحيو لهم حتى
رضوا ظهره وصدره .

نعم كان «عمر بن سعد» هو الذي فعل هذا وهذا ، خاف
«ابن زياد» وطمع فيه ، فوفى له بكل ما طلب منه جهره وعلى
رءوس الأشهاد .

وذكر دينه وما يجب عليه من حرمة نحو «الحسين» وآله ،
ففعل ما فعل تنفيسا عما يمكن وكان عليه مرغما .

وماض حياة ، الناس وأفسدها عليهم إلا أمثال «عمر بن سعد» ،
يدخلونها على الناس وهم قادة وإليهم الأمر والناس لهم يطيعون ،
فإذا هم يركبون بالناس مثل هذا المركب الوعر الخشن ، وإذا هم
مع الناس خاسرون .

وايكن ما يخسره الناس معوضوه بعد حين -- يقصر
و يطول -- حين يعلمون أن قادتهم لم يحسنوا قيادتهم
وسخّلوهم شططا .

أما ما يخسرهُ القادة فهم غير معوضيه ، فإنهم لاشك ماضون ،
بالخزي الباقي والعار الدائم والسبة التي لا تنمحى .
والناس لاشك مفيدون — إلى جانب ما أفادوا — من هذا
الخزي وذاك العار وتلك السبة عظات كثيرة .

ويحمل رأس « الحسين » إلى « ابن زياد » ، « خولى بن يزيد » .
وما أظنك نسيت « خولى بن يزيد » ، فيجد « خولى » ، قصر
« ابن زياد » مغلقا ، فيمضى برأس « الحسين » إلى منزله ، فيضع
الرأسين تحت إرجائه ، ويدخل إلى امرأته « النوار » هاشما باشا
يقول لها : جئت بك بغنى الدهر ، هذا رأس « الحسين » معك
فى الدار .

فتقول له « النوار » امرأته : ويلك ، جاء الناس بالذهب
والفضة ، وجئت برأس ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
والله لا يجمع رأسى ورأسك بيت أبدا ، ثم تخرج عنه .
هذا مال بنى أمية يغرية ، وجاه الدنيا يعميه ، وتلك يردها
إلى الصواب حب لرسول الله وحب لبنه .

ولقد كان المخرورون المخدوعون كثرة ، وكان جُرم القتل كبيراً ، وشناعته مفضحة ، فأب هؤلاء المخرورون المخدوعون بعد حين قلة ، وآب جرم القتل حديث القلوب أولاً ، ثم حديث الألسن ثانياً ، ثم انتقل هذا الحديث إلى الأيدي فعلاً وعملاً ، مما استعزف خبره بعد حين قليل .

* * *

فلقد جلس « ابن زياد » ورأس « الحسين » بين يديه ، وهو ينسكت بقضيب بين ثنيتيه ساعة ، فيثور به « زيد بن الأرقم » وهو يقول له : ارفع هذا القضيب عن هاتين الشفتين ، فوالذى لا إله غيره ، لقد رأيت شفتى رسول الله صلى الله عليه وسلم على هاتين الشفتين تقبلهما ! ... ثم بكى .

وهكذا رأى « ابن زياد » الشر الذى أراد أن يقضى عليه بالقضاء على « الحسين » يطل برأسه مرة ثانية ، وكما لم ينس « ابن زياد » شدته فى الأولى ، لم ينسها فى الثانية ، فالتفت إلى « زيد بن الأرقم » يقول له : أبكى الله عينيك ، فوالله لولا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك .

تخرج عنه « ابن الأرقم » وهو يقول : أنتم يامعشر العرب
العبيد بعد اليوم : قتلت ابن فاطمة ، وأمّرتكم « ابن مرجانة » ، —
يعنى « ابن زياد » — فهو يقتل خياركم ، ويستعبد شراركم ، فرضيتكم
بالتل ، فبعدا لمن يرضى بالتل .

* * *

ولقد جلس « ابن زياد » لآل « الحسين » من نسائه ، حين
جلسن بين يديه ، و « زينب » أخت « الحسين » فى أرذل ثيابها
متنكرة . فيقول « ابن زياد » : من هذه العجالة ؟ فلا تكلمه .
يقولها ثلاثا وهى لا تكلمه .

فتقول أمة من إماءها : هذه « زينب بنت فاطمة » .
فيقول لها « ابن زياد » : الحمد لله الذى فضحككم وقتلكم
و كذب أحدوئكم .

فتقول له « زينب » : الحمد لله الذى أكرمنا بحمد صلى الله عليه
وسلم وطهرنا تطهيرا ، لا كما تقول أنت ، وإنما يُفتضح الفاسق
ويكذب الفاجر .

فيقول لها « ابن زياد » : فكيف رأيت صنع الله

بأهل بيتك ؟ ...

فتقول له « زينب » : كتب عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم
وسيجتمع الله بينك وبينهم فنتخضمون عنده .

ثم ينظر « ابن زياد » إلى « علي بن الحسين » ، فيقول له :
ما اسمك ؟ ...

فيقول : « علي بن الحسين » .

فيقول « ابن زياد » : أألم يقتل الله « علي بن الحسين » ؟

فيسكت « علي بن الحسين » .

فيقول له « ابن زياد » : مالك لا تتكلم ؟ .

فيقول « علي بن الحسين » : الله يتوفى الأنفس حين موتها ،

وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله .

فيقول له « ابن زياد » : أنت والله منهم .

ثم يلتفت « ابن زياد » : إلى رجل بجواره ، فيقول له :

اقطعه ؟ ...

* * *

وينادي منادى « ابن زياد » في الناس ، فيجتمعوا في المسجد ،

ويصعد « ابن زياد » المنبر يخطب الناس فيقول :
الحمد لله الذى أظهر الحق وأهله ، ونصر أمير المؤمنين
« يزيد » وحزبه ، وقتل الكذاب ابن الكذاب « الحسين بن
على » وشيعته .

فيثب إليه « عبد الله بن عفيف الأزدي » فيقول له : يا ابن
مرجانة ، إن الكذاب ابن الكذاب أنت وأبوك ، والذى
ولاك وأبوه .

يا ابن مرجانه ، أتقتلون أبناء النبيين وتكلمون بكلام
الصديقين .

فيقول « ابن زياد » : على به .

فيثور معه « الأزديون » ويحملونه إلى داره ، فيرسل
« ابن زياد » من يأتيه به ، ثم يأمر به فيقتل ، ثم يأمر به فيصلب
فى المسجد .

• • •

وهكذا دخل « ابن زياد » بالذى ارتكب من غلظة ، فى
الشر الذى أراد أن يخرج منه .

وهكذا مضت هذه الثورات الصغيرة لمقتل « الحسين » تهيه
لثورات كبيرة .

وهكذا أفسد « ابن زياد » على الأمويين أمرهم الذي
انتدبوه له ليصلحه .

وهكذا مضى « ابن زياد » يخرج من عنف ليدخل في عنف ،
ويترك قسوة لتركب أخرى .

فقد أمر « ابن زياد » برأس « الحسين » أن يحمل على خشبة
فيطاف به في الكوفة ، يظن أنه يلقى الرعب في القلوب ، وقد ألقاه
حقاً كما ظن ؛ ولكنه ألقى إلى جانبه الأسى للمقتول ، والخسرة
على التفريط في نصره ، وهياً هذه القلوب لشركبير .

ولقد أدرك « يزيد » ما جره عليه « ابن زياد » حين دخل
الرسول يذبحه بما كان منهم نحو « الحسين » وآله ، يزور له في
العبارة ، ويجود في الكلام ، يبغى أن يسره ويدخل البشر عليه .
فإذا « يزيد » تدمع عيناه ، وإذا هو يقول لهذا الرسول :
كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل « الحسين » لعن الله

ابن سمیة ، أما والله لو أني صاحبه لعفوت عنه . فرحم الله
« الحسين » ، وما وصل ذلك الرسول بشيء على بشرائه .

ألا ليت «عمر بن سعد» كان حاضرا لهما ليسمعهما من «يزيد» .
سم ألا ليت «عمر بن سعد» أدرك أنه كان مدركا عند «يزيد»
فوق ما كان يرجو عند «ابن زياد» ، دون أن يأثم أو يجر على
نفسه ، وعلى الأمويين شرا .

وهكذا استقبل الأمويون بمقتل «الحسين» شيئاً جديداً ،
فألقد كادت الأمور تستقيم لهم بنزول «الحسين» عن حقه ، ولقد
كادت الأمور تستقيم لهم حين رغب «الحسن» في أن يلقى «زيد» ،
وهو حين يلقاه - لو تم له ما طلب - كان لاشك معطياً ما أعطى
«الحسن» أو معطياً شيئاً قريباً منه ، يسد على الأمويين باب الفتنة ،
ويُسكت الداعين ويردهم إلى نوع من السكون ، ولقد كان
الأمويون قادرين - في ظل هذا السكون - على أن يعضوا في إغرائهم
- وهم يملكون خزائن الأرض - فيجمعوا الناس حولهم ، وهم
لا شك كاسبون في ظل الأمن ؛ - إذ هم يملكون الأسباب التي بها
تشتري النفوس ، وتصرف القلوب ؛ على حين كان «الحسين»
وآله لا يملكون منها إلا القليل ، وهم لاشك كاسبون في ظل
هذا الأمن لأنهم لن يعطوا خصومهم ما يثيرون به القلوب
عليهم ، وهم لاشك كاسبون في ظل هذا الأمن وتلك المواقعة
التي رغب فيها «الحسين» ، ولم يُجسب إليها ، لأن الشيعة لم ينفروا مع

«الحسين، إلا حين رأوه ثائرا الحق، رافضاً أن يُعطى «يزيد»، وهم حين يرون «الحسين» يوادعوا - عون .
ولقد كان غير «الحسين» من آل له لا تمتلأ قلوبهم الحمية التي ملأت قلبه ، ولقد كان إرضائهم ليس بالشئ العسير على الأمويين لو أرادوه ، ولقد كان صرفهم عن «الحسين» وضمهم إلى «يزيد» يسيرا على «يزيد» ، لو لم تجر الأمور على هذا النحو الذي جرت عليه . وانتهت بمقتل «الحسين» ، على تلك الصورة المفزعة .

لهذا ارتد الشيعة إلى أقوى ما كانوا عليه - حباة «الحسين» وارتد آل «الحسين» ، أطمع ما يكونون فيما كادوا ينزلون عنه .

فلقد امتلأت قلوب الشيعة حسرة على ما فرطوا فيه ، وألمأ على تخاذلهم ، وكادوا يعدون أنفسهم شركاء في إهدار دم «الحسين» .

ولقد صحا آل «الحسين» ، على مقتل «الحسين» ، صهوة قوية

عنفية ، يذكيها النار ، وما خلصت نفوسهم منه ، ويذكيها تهيؤ
الشيعة لجديد من الأمر ، ويذكيها غضب الناس من حولهم من
ليسوا بشيعة ولا أهل .

وهكذا خرج آل «الحسين» من مقتل «الحسين» بحافزات
أربع :

فلقد كسبوا الشيعة بعد أن كاد «الحسين» يخسرهم .

ولقد كسبوا أنصارا آخرين كانوا عنهم بمعزل .

ولقد كسبوا هم أنفسهم بعد أن كادت تهون وتلين .

ولقد كسبوا شيئا آخر كان له خطره ، وكان لا يقل شأننا عن

هذه الثلاثة الأولى ، فلقد كسبوا حجة على الأمويين فيما ارتكبوا

من عنف وغلظة ، كانت في أيديهم أقوى سلاح وأمضاء ، كلها

لانت للقلوب حركوها بها ، ألا وهي مقتل «الحسين» .

أحسبها «يزيد» لاذعة موهنة حين باغى ما فعل «ابن زياد» ،

فقال :

ما علىّ لو احتمات الأذى وأنزلت «الحسين» معي في داري

وحكمته فيما يريد ، وإن كان علىّ في ذلك وهن في سلطاني ،
حفظا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورعاية لحقه وقرابته ، لعن
الله د ابن مرجانة ، فإنه اضطره ، وقد سأله أن يضع يده في يدي ،
أو يلحق بثغر حتى يتوفاه الله ، فلم يجبه إلى ذلك فقتله ، فبغضني
بقتله إلى المسلمين ، وزرع في قلوبهم العداوة ، فأبغضني البر والفاجر ،
تسا استعظموه من قتل « الحسين » ، مالى ولا ابن مرجانة لعنه الله
وغضب عليه .

أما والله لو أنى صاحبه ما سألتني خصلة أبداً إلا أعطيته إياها ،
ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت ، ولو بهلاك بعض ولدى ،
ولكن قضى الله .

• • •

وأحسبها المروانيون من حول « يزيد » حين حُمل رأس
« الحسين » إلى الشام .

فلقد جاء القوم « مروان بن الحكم » يسألهم : ما صنعوا ، فلما
علم ما كان انصرف عنهم مغضبا .

ولقد جاءهم « يحيى بن الحكم » يسألهم هو الآخر : ما صنعوا .

فلما علم ما عندهم : انصرف عنهم مغضبا وهو يقول : لن أجامعكم
على أمر أبدا .

ودخل على « يزيد » وهو ينشد :

نهم^(١) مجيب الطف أدنى قرابة

من ابن زياد العبد ذى الحسب الوغل

سمية أمسى نسلها عدد الحصى

وليس لآل المصطفى اليوم من نسل

ولقد بكت « الحسين » نساء المروانيين مع رجالهم ، ونحن

عليه ، وأقن المائتم .

...

وإذا تركنا الشام معقل الأمويين إلى غيرها ، رأينا البلبلة التي

ملككت على الأمويين ، وعلى غير الأمويين ألبابهم ، قد ملكت

الباب أهل المدينة ففر عنهم ، ولسان حالهم ينشد :

أيها القاتلون جهلا حسينا

أبشروا بالعذاب والتشكيل

كل أهل السماء يدعو عليكم
من نبي وملاك وقبيل
قد لعنتم على لسان ابن داو
د وموسى وصاحب الإنجيل
وإذ ما تركنا الشام والمدينة إلى غيرهما رأينا الناس مولهين
مهمومين، قد امتلأت قلوبهم حسرة وأسى.

وما قُتِل « الحسين » وحده في هذه الفتنة ، فيهنون الأمر
شيئاً على ذويه أولاً ، وعلى المسلمين ثانياً ، وعلى الشيعة ثالثاً ،
ولكنه قتل إلى جانبه في هذه الفتنة كل من كان معه
من آله :

قُتِل « العباس بن علي » ، وقُتِل « جعفر بن علي » ،
وقُتِل « عبد الله بن علي » ، وقُتِل « عثمان بن علي » ، وقُتِل
« محمد بن علي » ، وقُتِل « أبو بكر بن علي » ، وقُتِل
« علي بن الحسين بن علي » ، وقُتِل « عبد الله بن الحسين بن علي » ،
وقُتِل « أبو بكر بن الحسين بن علي » ، وقُتِل « القاسم بن الحسين
بن علي » ، وقُتِل « عون بن جعفر بن أبي طالب » ،
وقُتِل « محمد بن عبد الله بن جعفر » ، وقُتِل « جعفر بن عقيل
بن أبي طالب » ، وقُتِل « عبد الرحمن بن عقيل » ، وقُتِل
« عبد الله بن عقيل » ، وقُتِل « مسلم بن عقيل » ، وقُتِل
« عبد الله بن مسلم بن عقيل » ، وقُتِل « محمد بن أبي سعيد بن عقيل »

وقتل من مواليتهم : « سليم » مولى « الحسين » ، و قتل
« منجوع » ، مولى « الحسين » ، و قتل « عبد الله بن بقطر » ،
رضيع « الحسين » .
واستصغروا « الحسن بن الحسن بن علي » ، و « عمرو بن
الحسن » ، فلم يقتلوهما .

وهكذا كانت حرب استئصال - كما رأيت - لم يبق فيها
« ابن زياد » ، ولم يذر .

وصدق « يحيى بن الحكم » ، حين قال :

سمية أمسى نسلها عددا الحصى

وليس لآل المصطفى اليوم من نسل

وإن الحجة التي ملّسوها « ابن زياد » للناس على « الأمويين » ،
وعلى رأسهم « يزيد » ، ملّسوها « ابن زياد » للناس عليه ، فإذا هو
الآخر يريد أن يخلص من إثمها ، كما أراد « يزيد » ، أن يخلص
من إثمها ، وإذا « ابن زياد » يرى « يزيد » قد ملك « عذره » ،

وحمله هو تبعته ، فنجى « يزيد » — فيما ظن « ابن زياد » —
من شرها ليقبل خيرها ، وآب « ابن زياد » بشرها وهو في
شك من خيرها .

عندها ارتد « ابن زياد » يفكر ، وماله هو الآخر
لا يكون له عذر « يزيد » ، على الناس ، وماله هو الآخر لا يحمل
تبعته « عمر بن سعد » فينجو كما نجى « يزيد » من إثمها ، ويحمله كله
كاملا « عمر بن سعد » .

من أجل ذلك دعا « ابن زياد » إليه « عمر بن سعد » يسأله
أن يأتيه بالكتاب الذى كتبه إليه فى قتل « الحسين » .

وهنا يدرك « عمر بن سعد » ما يُراد به ، وينسى ما عند
« ابن زياد » بما عند الله ، وينسى لذة المظمع بمرارة الغدر ،
وينسى هذه الدنيا بحقد الناس عليه ، فالتفت إلى « ابن زياد »
يقول له : مضيت لأمرك وضاع الكتاب .

ويعرف « ابن زياد » أن « عمر بن سعد » يسكر به ، وأن
كتسابا كهذا ان يفرط فيه « عمر بن سعد » ويعرف أن
الكتاب لا زال فى يد « عمر بن سعد » يحتفظ به ، فيسأل

ويلج في السؤال .

وإذا كان « عمر بن سعد » قد خانه وفاؤه ، فلن يخونه دهاؤه ،
وإذا كانت الدنيا قد غلبته على أمره مرة فلن تغلبه أخرى ، وإذا كان
لم يقدر لأمره من قبل يروده الصواب ؛ فما أولاه أن يقدر له اليوم
والصواب رائده ، ثم ماله هو الآخر لا يخرج من الفتنة وله عذره ،
وليدع « ابن زياد » يخرج بإثمها كله ، كما فعل به « يزيد » ، وما عليه
أن يخسر ما عند « ابن زياد » فلقد رآه ، شيئا لا يغنى لزاء ما هو
لاق على السنة الناس وزارع في قلوبهم .

لهذا التفت « عمر بن سعد » إلى « ابن زياد » يقول له :
تركته والله يُقرأ على عجايز قریش بالمدينة اعتذاراً إليهن .

أما والله لقد نصحتك في « الحسين » نصيحة لو نصحتها أبي
« سعد بن أبي وقاص » لكنت قد أدبت حقه .

وهكذا خرج « ابن زياد » وآله بإثمها كله ، فيما ظن « يزيد » ،
وفما ظن « عمر بن سعد » . ولقد صدق « عثمان » أخو « ابن زياد »
حين قال وهو يعقب على كلام « عمر بن سعد » : صدق ؛ والله
لوددت أنه ليس من بني زياد رجل إلا وفي أنفه خزامة إلى يوم

القيامة ، وأن « الحسين » لم يقتل .

وليحمل « ابن زياد » إثم قتل « الحسين » ، وليحمل
« عمر بن سعد » إثم قتل « الحسين » أو لا يحمله ، وليخرج
« يزيد » من هذا الإثم بما بداله .

ولكن « قتل « الحسين » وآله » لم يكن شيئاً يبحث فيه عن
القاتل ليقصص منه ، ولم يكن شيئاً يعذر فيه القاتلون إلى الناس ،
ولكنه كان جرحاً لا يندمل ، وكان شراً لا تهدأ ثائرته ، وكان
فتنة ظن الأمويون أنهم قادرون عليها أول الأمر ، فإذا هي
فتنة هم عاجزون عنها آخر الأمر .

وكما لم يسكت الأمويون مع مقتل « عثمان » وهبوا يطالبون
بقاتليه ، واتخذوا من ذلك وسيلة لهم لحرب « علي » .
كذلك لم يسكت الهاشميون عن المطالبة بدم « الحسين » ،
وهبوا يطالبون بقاتليه .

ولقد كان قاتلو « عثمان » حفة من الناس لم تنبئ حالهم ،
وكانت المطالبة بهم لا تضير كثيراً ، وهي مع ذلك أعطت الأمويين

أسباب الغلبة ، وأثارت معهم الناس .
 وكان قاتلو « الحسين » عمالا للأدويين وقادة ، لم تغب
 حالهم ، وكانوا في ذلك القتل عامدين قاصدين مدبرين ، وكانت
 المطالبة بهم تطلب الخروج على الدولة الأموية ، والثورة بها .
 والسعى لزعزعتها ؛ لذلك دبر الهاشميون ، وبثوا دعائهم .
 لينتصفو لأنفسهم ، ولينالوا من عدوهم ، ترهبهم قوة الأمويين
 فيلينون شيئا ، ولكنهم على ذلك لم ينسوا ، وظلوا يناوئونهم
 حتى يكتب لهم النصر آخر الأمر ، يزيدهم ضعف الدولة الأموية
 قوة ، ويزيدهم التفاف الناس حول دعائهم قوة ، ويزيدهم
 أن الناس لم ينسوا مقتل « الحسين » وآله قوة . وإذا هم آخر
 الأمر يغلبون الأمويين على أمرهم .

وكما دخل الأمويون إلى الحكم بدم « عثمان » دخل الهاشميون
 إلى الحكم بدم « الحسين » ؛ مع فرق بين الحالين :
 فقد سعى الأمويون إلى الحكم فاستخلصوه لأنفسهم ، دون
 أن يخسروا فيه إلا دم « عثمان » .

ولقد سعى آل أبي طالب بن عبد المطلب إلى الحكم

يستخلصوه لأنفسهم ، فإذا هم قد خسروا فيه كل دمايتهم ، وإذا
الحكم آخر الأمر لبي عمروتهم آل « عباس بن عبد المطلب » ،

o o o

فلقد نزل عنها — وهي لا تزال دعوة — « أبو هاشم بن محمد بن علي بن
أبي طالب » ، في مرض الموت ، إلى « علي بن عبد الله بن العباس » ، ثم
موت « علي » وبتلقبها ابنة « محمد » .

ثم يموت « محمد » بعد أن يمهّد لابنه « إبراهيم » ، ثم يموت
« إبراهيم » ، بعد أن يمهّد لأخيه « أبي العباس السفاح » ، عبد الله بن
محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، رأس الدولة العباسية ، وأول
خلفائها .

وبـ « أبي العباس السفاح » كان ميلاد الدولة العباسية ، وعلى يديه
تجرع الأمويون ما جرعه للهاشمين ؛ يسعى إلى استئصالهم ، كما
استأصاوا إخوانا لهم من قبل ، تحدوه القسوة التي حدثت «
« ابن زياد » ، وهو يتمثل قول « سديف » الشاعر :

لا يغر نك ما ترى من رجال إن تحت الضلوع داه دويّا
فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويّا

